رواية

ليلة عرس

يوسف أبو رية

ليلة عرس

يوسف أبوريه

" أنت أكمه، وأنا أصم أبكم ، إذًا
فلنتماس الأيدي، ولنتفاهم"

جبران خليل جبران
(رمل وزبد)

" بما أني أصبحت جاهزا للأعراس
مثل أوزة على طبق
فلتبدأ الحفلة الآن
ليرقص القتلة واللوطيون
مع الملوك والقديسين
ولتبارك العاهرات هذا العرس بدلا من الكهنة
ليكون لهذه الليلة نسل جميل
لتبدأ الحفلة
فأنا جاهز تماما
كالصناديق"

وديع سعادة
(مختارات)

الإعداد للعـــــــــروس

- ١ -

إنه أمين الأعمى يعتلي مئذنة جامع السوق...

تهبط تسابيحه من سماء الحي، تجول بين النوافـذ المغلقـة وفتحات الدور، تهتز لها القلوب في وجل.

(سبحان من تسمى قبل أن يتسمى)

(سبحان من كان عرشه على الماء)

(سبحان من علم آدم الأسماء)

يتقلب زكي لبعض الوقت في فرشته، وحين يسـمع الأذان ينهض ليرفع شريطة المصباح قليلا حتى تبدو أشـباح الغرفة، كتل متناثرة هنا وهناك، حصير مهترئ، ولحاف قديم له رائحة عطنة، وقلة ساح الماء حول قعرها، وحنفية مـن الزنك، يتلقف ماءها إناء صغير، تسقط القطرات فيه طـوال الليل، متجاوبة مع ضربات القلب الغافي.

رش وجهه الأسمر بقليل من الماء، ثم مال على ذيل الجلباب ليجففه، وذهب إلى ركن الغرفة المكـدس بـالظلام، فدفع كتف حودة، لم يستجب ، فركله برجله في مؤخرته، لم

ينفرد بدنه الملموم، فاضطر ككل صباح أن يملأ كفه بالماء، وينثره على وجه حودة، فقام صارخا: أب... آب..

رفع زكي يده إلى أذنه ليعلمه أن أمين أذن لصلاة الفجر، ثم أشار إليه مرة أخرى بكلتا يديه ليخبره أن اليوم سوق، ولابد وأن يلحقا وقتهما قبل الزحام ليصلا إلى محل المعلم قبل طلوع الشمس.

أجابه حودة بأنه يفهم كل هذا، وحاول الانثناء ببدنه واضعا رأسه على يده المطوية، ولم يدع له زكي الفرصة، فشده من الذراع المفرودة على جنبه ، وجره إلى الحنفية غصبا، وأمال رأسه تحتها ليسقط الماء على شعره الخشن بينما حودة يتملص منه ويصرخ بصوت مكتوم:

آب..آب..

بعدها اضطر إلى مسح وجهه بكميه، وانحنى على أدواته فرفعها تحت إبطه، وجعل البعض مرصوصا على الحزام الجلدى الذي يلتف حول خصره، سكاسكين، وسواطير، ومبادر طويلة، وحبال سميكة، وآنية كبيرة من الصاج.

نفخ في الفتحات السفلية للمصباح، فاضطربت الشعلة، واختنقت، وأعاد النفخ، فانطلق منها دخان أسود، حوم داخل الزجاجة المعتمة، وانطفأت.

الآن هم خارج الغرفة...

هي مكان معزول، ومستقل، أمامها مساحة ضيقة يطل عليها جدار غرفة أخرى لها باب يفتح من الجهة العكسية، يسكنها طالب المعهد الديني. هو ابن إحدى القرى النائية، يدرس علوم القرآن والحديث، وعلوم البلاغة والنحو العصية، تجاوز سن التلمذة منذ عهد بعيد ولكن والده يصر على إكمال الدراسة حتى يحصل على الشهادة الثانوية ليلتحق بجامعة الأزهر في القاهرة. هكذا كان يحلم، وهكذا وهبه لله ولقرآنه الكريم حين كان يملس بكفه على أستار الكعبة في رحلة الحج الوحيدة. مال برأسه متشبثا بالأستار السوداء المباركة إلى جوار الحجر الأسود، وترك دموعه تسيل وهو ينهنه بشدة: إذا رزقتني بالولد سأهبه لكتابك المجيد.

وحين تعثر في دراسته سعى إلى تزويجه، فخطب له إحدى بنات قريته، هي الآن تقيم في بيت العائلة، وينزل هو

المدينة وحيدا ليتردد على المعهـد، ويجـد الوقـت الكـافي لتحصيل علومه.

كان يقلقل قفل الغرفة حين خرجا عليه في نفس اللحظة.

- صباح الخير يا مولانا.

- سلام ورحمة الله وبركاته.. رزقكم الله بالرزق الحلال.

وسار أمامهما يظلع في مشيته، يسند بكفـه علـى السـاق السليمة، ويجر المشلولة على الأرض، لم تنم أبدا، ولم تزد عن ساق طفل صغير.

في المواجهة باب أم على صـاحبة الغـرف والـدار ذات الدورين، تؤجر الغرف السفلية، وتسكن هي وبناتها الأربـع في الدور العلوي.

أشار حودة إلى أخيه. إنه يريد التبول في المرحاض العمومي لدار أم علي، ورد عليه زكي بأنهما سيمران علـى الجامع ككل صباح، لكن حودة أشار بـألم إنـه لا يسـتطيع صبرا، فالماء سيندفق منه غصبا، فقال له زكي: رح.

ودفعه من ظهره. وقف ينتظره على البـاب الـذي يجمع الغرف بدار أم علي، يراقب الشارع النـائم، وحـودة داخل الردهة التي يصعد منها السلم إلى الدور العلوي، دفـع

باب المرحاض فوجد فكرى النقاش يعتصـــر جســـدة فـــوق حجرين، ويستند بكلتا يديه على الجدران، فصاح معتذرا: آب.. آب...

عاد بظهره إلى الوراء لينظر إلى البـــاب المفتـــوح، وهمست نفسه الخرساء، يارب كيف يتحقق ما رأيـــت فـــي المنام؟

هكذا رآها ، قبل أن يوقظه زكي بقليـــل فـــي نفـــس الثوب الأحمر الفضفاض الذي يحيط ياقته زغب خفيف، يبدأ من وراء القفا ثقيلا وغزيرا وينتهي إلى السرة خفيفا نحـــيلا ليترك مساحة باهظة لحركة الثديين الوفيرين.

إنها أمامه الآن بهيأة الحلم.

تميل على الدلو والفرشاة، تسحبها من تحت السرير الأسود العالي ذي الناموسية الشفافة المنسدلة عليه من أركانه الأربعة.

انتبهت فكيهة إلى العين الواسعة المحدقة فيها بقـــوة، رأت دموعها شهوة تسيل على الخدين، فارتعشت أعطافها.

(ماذا يريد مني هذا الأبله؟) "إنه لا يكف عن التحديق في سائر بدني.. وحين أكون في جلسة بين الجارات لا ينظر

لغيري.. إن لعينيه سكاكين تمزع الجسد، وتهتــك أســراره، إنني لا أطيق نظرتهما... نظرات فاضحة، لا حياء فيها، ولا خشى"

خرجت بأدوات زوجها لتضعها أمام الباب ، وعادت إلى الغرفة تعد له إفطاره، فلحق بها حودة.

- عاوز إيه؟

وقلبت كفها البيضاء في الفضاء...

فأشار إلى موضع القلب، وأسبل جفنيــه، ثــم رفــع أصابعه مضمومة على شفتيه.

- شف حد غيري.

وسمعت نداء فكري مــن المرحــاض، فجزعــت، وانتفض سائر بدنها.

- أيوه..

- جهزت اللقمة؟

- أيوة..

ودفعت حودة إلى الخارج، فكان يتقهقر بظهره دون أن يرفع عينيه عن الفلقتين المنسابتين بين الزغب الــوردي الذي ينام على هضبتي الصدر.

عند الباب تشبثت أقدامه بـالأرض، وعـزم علـى الهجوم فرغبات اليد النحيلة أقوى من إرادتـه، إنهـا تريـد الإمساك بشيء من نتوءات الجسد الفارغ الموزعة بحكمـة، وبهندسة إلهية تثير شهوة الرضيع.

في لحظة الهجوم المباغت وقعت ثلاثة أحداث:

ميل فكيهة على الفرشاة التي تطل يدها الخشبية من الدلو، وخروج زوجها بعد قضاء الحاجـة مشـغولا برفـع سرواله وتجفيف يده في جوانبه المنقطة بألوان قوس قـزح، ونزول الشيخة عايدة من سلم الدور الثاني تسـحبها أختهـا الصغرى نوال.

صبح فكرى على الجميـع، وأشـار إلـي بـدخول المرحاض غير أنه انسحب مخذولا إلى الخـارج، وتقدمتـه نوال ممسكة بيد أختها العمياء حيث طريق المقـابر لتلحقـا بالزائرات قبل أن ترتفع الشمس الحارة لتعود فـي الضـحى بثروة هائلة من الفطائر والقرص ، وبقليل من المال.

وأخذته أرداف نوال الصغيرة المضغوطة في جلباب ضيق، مخنوق عند الخصر، ينزل بكسرات تتـوزع علـى الكفلين القويين المتماسكين، فاستيقظت مرة أخـرى رغبتـه

العاجزة، خطا بسرعة ليسير في الطرقة الطويلة موازيا لهما، وفي لمحة وكما ينقض مخلب الصقر الجارح علـــى عنـــق الحمامة ضغط على الترمستين البارزتين للبنت التي تقـــتحم سني الأنوثة بعنفوان، لا يدري أحد منبعه، فزعـــت الطفلـــة فيها، وضربت مخلبه الملوث بدم جاف.

- يا وسخ.

وعاتبت الشيخة عايدة أختها.

- ع الصبح كدا!!

- الأخرس خبطني.

- جاك خابط.

وكان زكي قد راعه المشهد، فأمسك أخاه من ياقـــة الخلعة التي تجمد نسيجها المدمم.

- تجيب لنا الكلام ع الصبح.

فأشار حودة إلى إصبعه، وأدار حوله إصبع الكـــف الأخرى، يريد أن يقول له: قلت لك أكثر من مرة زوجني.

خرجا إلى الشارع، فلامست وجهيهما نسمة رطبـــة، وهواء نظيف، دفعهما إلى السعال في نفس واحـــد ليـــدفعها هواء الغرفة الفاسد في بلغم لزج، داســـا عليـــه بأقـــدامهما،

وظلت فكيهة بثوبها الأحمر ذي الزغب الناعم تخايل عيني حودة لبعض الوقت.

فكيهة منذ أتي بها زوجها من قريتها البعيدة، تشغل بال فتية الحي، بقوامها الشامخ، وشعرها الناعم الذي تتركه همجيا على كتفيها، وبأثوابها التي تبرز الكثير من مفاتنها، فهي ليست كنساء الحي، ترتدي الجلابيب ذات السفرة ، وتضع الطرح السوداء على رأسها، وتخرج بشباشب سوداء ذات جلد سميك.. أنها تميل للألوان الصارخة البهيجة، وتبدع في تبديل مناديل الرأس التي تتطرح على جوانبه أزهار كبيرة زاهية، وتخرج بنعال فاقعة الألوان، لها ورود تشرق على واجهة القدم، ودائما تلوك لبانة طرية، تطرقع تحت أسنانها الصغيرة البيضاء، وتخرج بطرف لسانها لتحدث فرقعة تهز القلوب الوثابة لأولاد لا يكفون عن التسكع تحت شباكها، أو الوقوف طويلا تحت أسوار البيت الكبير التي تمتد من شارع الفاخورة حتى تواجه معمل الجبن.

من هذه الأسوار تطل غصون خضراء لأشجار توت سامقة تميل على الحافة، وترمي ظلها عند الهجيرة أمام دار أم علي.

تقضي فكيهة النهار وحيدة بعد خروج فكري بدلوه وفرشاته وحلته المزركشة بألوان جيرية ووجه لا تنمحي عنه بقع زيتية راسخة.

ربما خرجت لتقضي مشوارا هنا أو هناك، أو لتبتاع الخضار من السوق، وربما جالست النسوة المجتمعات تحت أسوار البيت الكبير.

وحودة حين يراها في غدوه ورواحه لا يتماسك أبدا، يندفع جسده بلا إرادة منه فيسبقه إليها، فمرة ترتفع يده الساقطة إلى جنبه لتمسك عضدها اللحيم المزنوق في كم ضيق، ومرة يجد نفسه وجها لوجه معها، فلا يدع لها الطريق، يقتحم حضنها في المدخل الضيق لدار أم علي.

وغاب عن وعيه يوما عند عودته من محل الجزارة فوجدها تميل إلى الداخل، وقد تركت رد فيها يصعدان إلى أعلى، كانت تكنس عيدان الملوخية المتناثرة في المدخل، فسقط عليها من أعلى العتبة، وأمسك بكفلها من الجانبين، ودفعها إلى الأمام بقوة، أخذتها المفاجأة حتى كادت تسقط على وجهها ، غير أنها تماسكت، واندارت إليه لتضرب وجهه بالمكنسة، وهو لا يريد إفلاتها، كان يدور بها من

الخلف، وهي تريد التمكن منه، فدفعته نحو الحائط، حتى نطق الآه صريحة واضحة، ثم جمع ما بين فخذيه بكفيه، وانعطف إلى غرفته ذليلا كئيبا حتى عادت إليه ممسكة المكنسة بيد تمرح على بياضها أساور ذهبية لها بريق.

أشارت إليه وهي غاضبة بحق أنه لو عاد لفعلته هذه ستخبر زوجها، ورفعت اليد الطليقة إلى شفتيها لتبرم شاربا وهميا، وأنها ستفضحه أمام سكان الدار ليطرد من مأواه، وأشارت بالمكنسة نحو الخارج كأنما تكنس كومة من القاذورات، ثم تفضحه في الحي كله، ورفعت كلتا يديها لتصنع دائرة كبيرة، وركلت الهواء بساقها، إشارة بأن الجميع سوف ينبذه.

ظل منصتا إليها، معلقا المفتاح في القفل، يتأمل جمالها، ويود لو يلقي بدنه النحيل في أحضانها غير أن الألم الذي تصاعد من أسفل أطفأ الرغبة، وأشار بإصبعه إلى عينيه مطيعا ثم ضم أصابعه النحيلة الجافة إلى شفتيه، وألقي قبلة في الهواء، جعلتها تبتسم، وتنسى غضبتها العارمة، دخل غرفته المظلمة الكئيبة راضيا بالبسمة أسيفا لعدم الاكتمال الذي أهدر طاقته.

انعطفا سويا جهة اليمين ليتجها إلى الطريق العمومي المسفلت، حيث ينتظرا معا العربة الكارو عند بوابة المحطة ، تجاوز دار أم علي، وتفاديا الندى الساقط من توت البيت الكبير، ودنا من دار (أبو سنة) الذي خرج من عتمتها رافعا سحاحير السمك الزفرة.

- صباح الخير.

- صباح الجمال.

أراح السحارة على الأرض بعد مجاهدة مع ثقلها، ووقف يجفف عرق جبهته، وابتسم لحودة ، ونطر يده في الفضاء علامة التحية، فرد عليه حودة السلام بإهمال ، وردد همهمة كظيمة تشي بعدم الرضا عن الرجل.

- مالك؟

فأجابه زكي:

- زي كل يوم.

- كان على عيني.. البنت لسه صغيرة.

وفهم حودة ما عناه الرجل، فبصق جهة شجر التوت الذي تميل أغصانه حتى تلامس الرأس، وأراد أن يشد أخاه فلا يثرثر مع هذا الرجل، فجذبه زكي نحوه ، وأشار إليه أنه

يسمع صريخا، واتضح الصوت ، فقد خرجت بنت (أبو سنة) مندفعة من الداخل وألقت بنفسها في حضن أبيها.

كانت أمها تلاحقها ممسكة المكنسة بيد، ورافعة سروالها المبلل باليد الأخرى.

وانحنى الأب على البنت يجمعها بين يديه ليحميها من الضرب، وطاشت الضربات حتى أطاحت بعمامته.

- يا وليه.. حرام عليك .

- دى عروسة.

وأحس زكي بالحرج، فجر أخاه ليصعدا إلى طريقهما ثم نزع حودة يده وراح يضرب الكف بالكف، وينظر إلى السماء التي بدأت تلمع بإشراقة يوم جديد "آب..آب..".

دفعه زكي في جنبه معاتبا، وأشار إليه ليفهمه هذه من كنت تبغاها عروسا ، أصبر على رزقك، وستجد الفتاة المناسبة لك، وأمن حودة على كلامه بأن وضع إصبعين على جانبي رأسه.

صدفة غريبة أن تخرج بنت (أبو سنة) في هذه اللحظة وأن تميل أمها إلى فضحها، كل يوم عند خروجهما تقع عيناهما على نفس المشهد، الأب يعد سحاحيره للذهاب

بها إلى الطريق العمومي ليقف هناك مع باقي السماكين بانتظار عربة المطرية التي تأتيهم من أقصى الشمال محملة بأنواع السمك، البلطي، البياض، البوري ، وقليل من الثعابين.

وتقع عيناهما على البنت وهي خارجة من عمق الدار، ترفع المشنات والميزان لتصحب أباها حيث مكان البيع، إما في سوق البلاد، أو في رحلاتها إلى الأسواق الأخرى في القرى والمدن المجاورة، تتقدمها أمها في طولها السامق وأطرافها الممتدة، تلملم غطاء رأسها الأسود، وتنظر خلفها من وقت لآخر تناديها.

- همي يا نادية.

وحودة من خلفهما يهم نحوهما ويسرع الخطو حتى لا يفلت مشهد الردفين المندفعين إلى الوراء يصعدان ويهبطان مع مشية البنت المرهقة بالحمل الثقيل.

أتريد الأم بأن تقطع عرقا، وتسيل دما، وتنهي إلحاحه في طلب البنت؟

ها هي كما ترى صغيرة إلى الحد الذي يجعلها لا تتحكم في بولها.

فليكن..

وأشار إليه زكي ليقول له: افرش لها مشـمعا كمـا تفرش الأمهات لأطفالهن.

رد عليه حودة بالإشارة أن صغر سنها لا يمنعه من الارتباط بها، وأنها ستنمو معه وبالتالي يسـتطيع السـيطرة عليها وتشكيلها على مزاجه.

ورفع كفيه إلى صدره ليصنع علامة الثديين، ثم قبل أصابعه الملمومة على شفتيه، بقصد الإعلان عـن جمـال البنت، فأسكته أخوه ليرد تحية المرأة التي ترفع مترد اللـبن على رأسها ساعية إلى المعمل ، هي أول من تحضر مـن نساء الحي، امرأة نشطة، تحلب بهيمتهـا مبكـرة، وتسـرع باللبن دافئا تحصل على ثمنه وتعود إلى دارها لتعد الإفطـار للزوج قبل أن يسرح إلى حقله، تتبعها نسوة أخريات يخرجن من الشوارع الفرعية حاملات المتارد على رءوسهن ويقـل خروجهن كلما صعد الشارع إلى أعلى حتـى ينتهـي عنـد المعصرة ومنازل الحجر التي تضم دكاكين البقالة، والمقاهي، والمطاعم، ومحلات صناعه الحصر، فيضج الشارع الكبيـر بحركة السيارات المارقة، قادمة من الجنوب، ومن الشـمال،

تلتقي عند مدخل البلد في طريق يضيق عند البوابة الحديدية، حيث ينحصر الشارع في صف وحيد من الدكاكين، وأبواب البيوت، يواجه سور السكة الحديد المبني بالدبش الأبـــيض، يمتد من أول البلد إلى آخرها.

هنا مكان الزحام... وهنا ملتقى الطرق جميعا..

محطة القطار، محطة الأتوبيس، موقف الســيارات، عربات الطعام، والبليلة، فرش الفكهانية، مــوزع الجرائـــد، وأكثر المقاهي كثافة، ووكالة الحمير حيث يدع أهل القــرى التابعة للبلد مطاياهم إلى حين عودتهم من السفر إلى المـــدن الأخرى.

اقترب زكي وحودة من مقهى متولي، ووقفا لـــبعض الوقت حول النار المرتفعة من المنقد الواسع، مدا أيديهما إلى لسان اللهب ليدفئا أطرافها الباردة، وبدت عزيزة الخنفا فـــي ضوئها الخفيف الساقط على النصبة، كانت تشعل النار تحت الرمالة، وحين استدارت إلى طقم المعســل لتعيــد ترتيبـــه لمحت الأخوين ، فرفعت يدها محيية، وغمزت لزكي بطرف عينها السليمة، فابتسم ، وتبرم حودة، وأدار ظهره نحوهـــا، وجاء صوتها من داخل المقهى.

- صاحبك لسه واخد على خاطره؟
- اسأليه.

وشد حودة من كم جلبابه لينظر إليها غير أنه نـــتش الذراع بعنف، وترك مساحة الضوء التـــي تشـــيعها النـــار، ووقف في مواجهة البوابة الحديدية بانتظار العربة الكارو.

تحركت أمعاؤه في جوفه، وشعر بالغثيان، ولولا أن المعدة خاوية لكان قد دفق محتوياتها على الأسفلت، فأمســـك بطنه بعد أن ألقى عن كتفيه حمولته من الأواني والسكاكين.

وسرح عقله في هذه المرأة اللعوب، عزيزة الخنفـــا مبولة الطريق العمومي، أتي بها متولي حين هبطـــت البلـــد لحضور المولد، وجدها (سفروته) تجيد عمل المقاهي، وكانت سريحة على باب الكريم تنتقل من مولد إلى مولد ، ومن بلد إلى بلد، تخدم في الغرز، وتنام مع من يرغبها، والرغبه إليها بحاجة لشجاعة خاصه، لن يقربها إلا محتاج. فهـــي امـــرأة عوراء، سوداء ، صدئة الجلد، لها رائحة الماء الذي تنزحـــه من بئر المقهي، خليط من المعسل العطن الممـــزوج بتفـــل الشاى، وبقايا البن، وحصي الحلبة، تتســـرب مـــن الخلطـــة رائحة دخان راكد لقوالح مطفأة ومدفونة.

ظل حودة يمتنع عن الاقتراب منها، رغم مناوشاتها المتكررة، فهو حين ينهي عمله في دكان المعلم، يحصل مع أخيه على فص من كبدة الذبيحة، يقفا به على عربة خشبية صغيرة أمام مقهى متولي مع دخول الليل حتى انقطاع الرجل عن الشوارع أو حتى تنتهي كمية الكبدة المقلية بالزيت.

يقف حودة أمام الصينية الواسعة. يقلب قطع الكبدة ثم يخرجها بمصفاة إلى إناء مفروش بالبقدونس، وزكي يفتح الأرغفة، ويدس فيها الكمية المطلوبة بعد وضعها على الميزان، ويفاجأ حودة عند استغراقه في عمله باليد تندفع إلى آلته ، فيصرخ وحين يلتفت يجد عزيزة تكركع بضحكة ذكورية غليظة وهي ترفع الأكواب والصواني والجوز من أمام الزبائن.

ويهلل الرجال لحركاتها ويطلبوا منها العودة إليه ، فتمهلهم حتى تتحين منه الغفلة.

ينسى حودة فعلتها ويقف أمام الصينية الواسعة يقلب الكبدة، وينادي الزبون بأن يرفع كفه إلى صدغه صائحا. بيك. بيك..

تعود عزيزة خلسة وتنتش طـــرف آلتـــه الراكـــدة، فيجري وراءها بالمصفاة، ويقتحم مجلس الرجـــال، ويـــدخل المقهى، ويحجز بينهما متولي خابطا بيـــده علـــى صـــدره: علشان خاطرى.

ويميل على رأسه فيبوسه.

ذات مرة كررت فعلتها، لحق بها، وزنقها بين حائط النصبة ونار الرمالة المشتعلة، وأمسك بكلتا ذراعيها، واقتحم صدرها يريد أن يدفعه برأسه ففوجئ بانتصابه يســبقه إلـــى موضع العفة فيها فترتخي ذراعا المرأة إلى أســفل وتلتقـــي العينان فتغمز له، ويسقط فكه في بلاهة، تشير إليـــه بأنهـــا ستزعم لزوجها ضرورة العودة إلى البيت لحاجة عرضـــت، على أن يلحق بها.

عاد حودة إلى أخيه سارحا في الملكوت، عاجزا عن السيطرة على جسده، وترك المصفاة على الزيـــت المغلـــي وأشار إليه بأنه سيذهب إلى مرحاض الجامع القريـــب لأنـــه (مزنوق)، وسيعود في غمضة عين، وأشـــار إلـــى عينيـــه، وسمح له أخوه.

لحق بعزيزة، ودخل بابها المفتوح، جاءت هي من الداخل بعد أن خلعت جلباب العمل الأسود وأطلقت شعرها بعدما فكت عنه منديلها الأزلي، واربت الباب، وسحبته من يده إلى سريرها المفروش بملاءة ذات مربعات باهته.

قعدت على حافة السرير، ورفعت ثوبها إلى أعلى، وأشارت إليه، فتقدم متردد، وزادت هي من رفع الثوب، وأدهشه أنها عارية من أسفل تماما، حدق النظر إلى ما بين فخذيها، وتقدم نحوها، فأمسكت ذراعيه وشدتهما ليركع أمامها، ونزل على ركبتيه، رفعت يديها إلى صدغيه لتدس وجهه في خلقتها، وحين دنا ولمست أطراف أنفه الشعيرات الخشنة، انقلبت معدته، وصعدت إلى حلقومه، ودون إرادة منه اندفع وجهه إلى بطنها، فطرحته أرضا، وركلته بقدميها، واندفع هو نحو الباب يمسح جوانب فمه بكمه عائدا إلى عربة الكبدة ، وهو ينتفض.

لحظ أخوة تغير سحنته ولكنه لم يسأله عن السبب أبدا، ورنا بطرف عينه ليرى عودة عزيزة إلى عملها في المقهى، واتسعت بسمته، واهتزت أعطافه، وهو يردد مقطع الأغنية مع مذياع المقهى.

أشار حودة إلى أخيه لينضم إليه حيث رأى عربة الكارو قادمة من الجهة الأخرى للبلد.. تصعد بجهد نحو المزلقان، والعربجي يلسع الحمار بسوطه ليندفع نحو الأرض المرصوفة بحجارة سوداء صغيرة على جانبي شريط القطار.

تقدم الأخوان نحو العربة، ركب كل واحد منهما على جنب، بعد أن وضعها أدواتهما في الطشوت الفارغة مع باقي أدوات الزملاء المتحلقين على الأطراف، وبدأت العربة رحلة الهبوط إلى الشارع المنخفض، وصاح العربجي في النسوة اللائي قدمن بالقفف والمقاطف التي تفيض بخضروات الأرض.

– يمينك يا ولية... ضهرك يا ست.

وانتشرت رائحة الشبت والبقدونس والكرنب والجوافة بينما عجلات العربة تطقطق يمينا وشمالا، وتتهادى في هبوطها الحذر نحو تجار الفخار الذين وزعوا بضاعتهم على جانبي الطريق ولم تنطلق العربة بحرية حتى خرجت من البلد لتستقبل الحقول السابحة في الضباب الخفيف.

هنا يحس الحمار بالعتق، ويقطع الطريق المسفلت، ويعبر الكباري المشيدة بالحجارة والحديد، مشوار طويل مرهق ليصل إلى السلخانة، ولكن بهجة الخضرة في الحقول والهواء المنعش الطازج، يفرد الرئتين على اتساعهما ليعبا منه، ما شاءت لهما الطاقة والجهد.

وبعد الترعة (الجنابية) ستنحرف العربة قليلا إلى اليسار لينضم رجال المعلم إلى باقي الجزارين، منهم السريحة الذين يحظون بنصف الذبيحة التي تعلق على (سيبية) خشبية في الأسواق، أو على قارعة الطريق، ومنهم (الكرشاتية) المتخصصون في بيع (العفشة) المكونة من لحمة الرأس، والكوارع، والفشة، والكرشه، والمنبار، يحملونها في طشوت كبيرة إلى عرباتهم ليقفوا بها في المكان المخصص للجزارين في سوق البلد، أو يسرحوا بها في الأسواق الأخرى، أو يفرشوا بها على النواصي.

ثم صبية المعلمين الكبار الذين يرفعون على ظهورهم ذبيحة كاملة أو أكثر من ذبيحة وفقا للموسم أو للأيام المحددة لبيع اللحم.

توقفت العربة على جنب، ونزل عنها زكي وحـــودة وباقي الرجال، واقتحموا الزحام ، دخلوا باب السلخانة مارين على الرءوس المقطوعة والـــذبائح المســـلوخه والكـــوارع المرصوصة في حبال، وتفادوا نهـــر الـــدم المنســـاب فـــي المجرى، وتابعوا الذبائح المعلقة في الخطاطيف حتى وصلوا إلى زميلهم الذي يقوم بالذبح، وجدوه قد انتهى مـــن عملـــه، وأشار إلى نصيب المعلم ليرفعوه عـــن الخطـــاطيف، دخـــل الرجل منهم بكتفه أسفل الذبيحة المقسومة نصـــفين، رفعهـــا قليلا إلى أعلي فانفكت عن خطافها، ومال الجزء المعلق نحو رأسه، فتلقفه رجل آخر، وسارا به سويا نحو العربة المنتظرة بالخارج.

- ٢ -

قام المعلم عثمان إلى الحوض يغسل يديه وفمه، وهي إلى جواره ممسكة بالفوطة، تضبط له ياقة جلباب النوم، رأى وجهها في المرآة ينساب على بياضه الناصع شعرها الأسود الموزع بالعدل على الجهتين. حين استدار إليها أمسك الوجه بكلتا يديه ليطل بكامل بهائه ويقطف قبله سريعة من شفتيها، فضربته على كتفه بحنو.

- حتتأخر ع المحل

تركت الفوطة على ذراعه، وسارت في الطرقة العريضة حيث تنقل أطباق الفطور إلى المطبخ.

تأمل شفافية الروب الأبيض الناعم تبرز الظلال الداكنة للستيان والكيلوت.. حورية من الجنة!! ستجنني هذه المرأة وتطير عقلي. كم من السنوات عبرت حتى حظيت بها؟؟

عمر مديد.. ولكنها لم تزل تشع نفس النور الملائكي الهادئ.. كنت أظنني سأخدش رقتها، ولكنها معطاءة.. تمنح في الفراش بلا جهد..

حين تقدم إليها مرة أخرى ، قالت له:

- أرجوك ما تتكلمش في الموضوع مع حد.. أخاف الفضيحة..

- فضيحة!!

- كفاية كلام الناس عن جوازنا.

- شرعي، وعلى سنة الله ورسوله.

- طبعا ، ولكن الموضوع التاني ماحدش حيرحم.

- أنا مش هعمل حاجة.

- أمال حتتصرف ازاى؟

- أنا بس حجرسه.

- حرام عليك.

كاد يعود إليها ليأخذها في حضنه، لكن وقت العمل أزف، ولا يستطيع تأجيل السوق، دخل غرفة النوم ليبدل ملابسه، وقف أمام التسريحة يتأمل شعر رأسه والشارب، هناك شعيرات بيضاء تناثرت على الجانبين، ولم تخفها الصبغة. أمر طبيعي . ولكن بعد الحصول عليها ينبغي أن يتوقف الزمن لتعويض ما فات. حب حياته، وفتاته الأولى، منعه الفقر من الصعود إليها ، حين كان صبيا يساعد أباه، عند وقوفه بالسيبية على رصيف شارع الزراعية، يحصل

على (السقط) المذبوح خارج السلخانة، يكـــون الفـــلاح قـــد استغاث به لينقذ بهيمته، ولما يهرع إليه يجدها فـــي النـــزع الأخير.

- نلحقها بالسكينة؟

- بكام؟

ويحاول صاحب البهيمة ليصل إلى أعلى سعر.

- يا آبا تحمد ربنا نشيلها فطـــيس، ورزقـــي ورزق أولادي على الله .

- توكل على الله.

ويحملها هو ووالده عثمان إلى الدار حيـــث يقومـــا بسلخها وتقطيعها، وإرســـال الـــرأس والســـيقان والعفشـــة لكراشاتي يسرح بها، ويقتعدا الرصيف صباح اليوم التالي.

وكانت هي تطل من نافذة بيتها، تشرق مـــع شـــمس الصباح بذراعين بضين يخرجان من ثوب صيفي خفيف، لا أكمام له، يحدق في النافذة حتى ينسي نفسه، أو حتـــى يفيـــق على صوت أبيه يزجره.

- خليك معايا شوية يا عثمان.

ظلت تنمو أمامه، وهو يراقب أنوثتهـــا فـــي مريلـــة المدرسة مرة، وفي الجيب والبلوزة مـــرة، وفـــي الجلبـــاب الأسود الحريري، تلف رأسها طرحه جورجيت تبدو نصوع الوجه، أكثر مما تحجب، إلـــى أن خطفهـــا الأفنـــدى الـــذي يستحقها (بنت الأفندى للأفندى) هكذا رددوا في وجهه، هـــو مجرد جزار على باب الكريم، يضع على رأســـه طاقيـــة مبرومة، ويربط وسطه حزام، يلتف على جلبـــاب أبـــيض غرقان في الدم، ويضع قدميه في (بلغة) اسود جلـــدها مـــن كثرة ما تراكم عليها من الدم والتراب.

راحت البنت إلى بيت المهندس المقام بأطراف البلد، فيلا عريقة بدورين، تنهض وسط حديقة يموج في صباحاتها عطر، لا نفاد له، وتحيطها أسوار عالية، تتوزع بين جنباتها أشجار العبل السامق التي تخفي الشـــجر المثمـــر بالجوافـــة والمانجو والليمون.

(هل أحست به يوما؟) لا يســـتطيع الجـــزم، كـــان يلاحقها في طريق المدرسة، وعلي رصيف القطـــار الـــذي يأخذها إلى عاصمة الإقليم، حين انتقلت إلى المعهد العالي.

ترد على إلحاحه بكلمات قليلة، وهي تنظـــر إلـــى الأرض في خفر محبب إلى القلب:

- خلاص أرجع بقى .. الناس تقول إيه؟

ويرجع بحسرته تاركا أميرته إلى شـــئونها، ولكـــن القلب المشتعل بناره الأزلية لا يهمد (لابد وأن تكون زوجتي يوما ما مهما حصل..)

وها هي وراءه تضع الشال القطني على عنقه، وتمد طرفيه على صدر جلبابـــه الفخـــيم، تـــداعب قفـــاه بيـــدها الرخصة، وتديره نحوها لتطبع القبلة على شاربه.

- علشان خاطرى... ما تديش للموضوع أكبر من حجمه.

- إزاى!!

- ولد أهوج، اعتبره دابة خرسا.

- لا.. هو أذكى بني آدم في البلد.. دا أنا مربيه.

- قلمين على صدغه بينك وبينه، وخلاص.

- سيبيني اتصرف.

واندفع إلى الخارج، وهو يســعل ليـــنفض بقايـــا تحشيشـــة البارحة، رفع ترابيس الباب، وخبط قدميه في الدواسة وقبـــل أن يغادر البسطة، سألها:

- عايزة حاجة؟

- سلامتك.

مد يده ليستند على سور السلم، واهتاجت الرئتان لهواء النهار النقي، فراحت تنفضه في سعلات قوية متتالية، حتى اندفق الدم إلى وجهه الكابي، فصار كقطعة الكبدة. تفل البلغم عند مدخل العمارة، وداسه بحذائه البني اللامع. طرقت أنفه رائحه السباخ، ودوى في أذنيه خوار البقر خلف جدران المعلف المواجه للعمارة، أطل برأسه من الباب العريض فرأى رجاله يوزعون العلف المخلوط بقش الأرز على المذاود الطويلة الممتدة والبقرات يلكن الطعام بنهم.

(كيف يجرؤ هذا الكلب على مد يده إلى سيدته؟

جنون. أقصى أنواع الجنون، بل سافل لا يخضع لنعمته، بعض اليد التي أنقذته من الجوع، نسي أني ضممته للعمل مع أخيه وأنا غير مقتنع به، ماذا يفعل أخرس معنا في محل جزارة؟ هو قدير في رص الجوزة، لاشك، عفريت، يسقيك المائة حجر في دقيقة، يقعي أمامك كجرو هزيل، لا يكف عن الإشارة.

تطلب مني ألا أعاقبه حتى لا تنفضح فعلته!! كيــف وأنا أدرى الناس به، وهل سيكف عن حديث المقاهي؟ أيــام كان يرص لي الحجارة، أعطيه الإشارة بالحديث، فيأتي على سيرة فلان، وعملة علان، أخبار البلد كلها في جيبــه، إنــه يدرى ماذا يحدث وراء الجدران، يدرك أســرار الفــراش، وخفايا القلوب، هنا تكمن خطورته..)

احكي يا حودة..

ويبدأ الحكي..

عن المدرس الذي يغرر بالتلميذة الغضة البدن، كيف يدنيها منه بحجة تصحيح الكراس، وهو طامع في الإمســاك بفرخيها الراقدين في المهد الدفيء، مازال لبن الطفولة عالقا بشدقيها، وهذا المعلم اللعــين يفزعهمــا، وينتــف زغبهمــا الأخضر.

ويحكي عن السائق الذي ينتقــي الزبونــة الجميلــة فيجعل جلستها إلى جواره يحرك (الفتيس) وبحسن النية يثبت الكوع على القبو الطرى المنتفخ، يحرك عجلة القيادة لتستمر الاهتزازة الخفيفة المثيرة على الصدر صعودا وهبوطا.

ويحكي عن الطبيب، يمارس المهنة وهو راغب في الجسد المستسلم بينما المريضة تئن من ألم ناشع في العظـــم، ينقر بإصبعه على المواقع الحساسة، ويلمـــس بخبـــث بـــين الفخذين وهو عليم بأن الوجع هناك، في الضرس.

"الآن سوف كون واحدا من هؤلاء"

"سيحكي عن شمس ويشهر بي لأنني لم أساعده على الزواج حين طلب ذلك مني. سيحاول الانتقام، ويعلن علـــى الملأ أنه على علاقة بالست".

– إن المعلم يرسلني بالطلب إلـــى شـــقتها، فتكـــون بانتظارى في أثوابها الشفافة التي تبدى روائع الجسد، تقـــول لي:

– ادخل يا حودة.

فأجد ما طاب من طعام على السفرة الكبيرة الممتدة بعرض الصالة. آكل حتى امتلئ، ثم تأخـــذني إلـــى حمـــام معطر، تدخلني خلف ستارة البانيو، بعد أن تكون قد تخلصت من أثوابها القليلة، ونقف في عرينـــا نتلقـــى مـــاء الـــدش، وتضمني إليها ألتهم شفتيها الحمراوين المتكنزتين، ثم ارفعها بين ذراعي لأدخل بها سرير وثير له فرشة وردية من حرير

لامع، نتقلب عليها براحتنا، ثم أعاود التهام الطعام " المحمر والمشمر" وتقطع لي ثمار الفاكهة من السلة الموضوعة بين أطباق الطعام كزهرية.

وضربت الشمس الطالعة من وراء البيــوت وجــه المعلم فصحا من كابوسه غاضبا مزمجرا يحاول فك قبضـــة يده، فلا يستطيع، يميل على سور الجامع لــبعض الوقــت، يرقب صحوة الشارع وتفتح الأبواب والنوافذ وخروج النسوة إلى الشرفات لنشر أغطية النوم، والفلاحين الذين يخرجــون من تفريعات الشوارع الضيقة يمتطون الحمير ويجرجــرون مواشي تخطو بهمة إلى الحقول على وعد بوجبـــة الفطــور على أجواف فارغة.

"هذا ما سيضيفه خياله الأخرس، وسيصدقه النـــاس نكاية في شخصي.. وهو – الكلب – لم يخطو خطوة نحــو عتبة الشقة. كان يقف على الدواسة – هكذا قالت لي – ومد يده بكيس الخضار فوضعته خلف الضلفة المغلقة، ثم مد يده بكيس اللحم – هكذا قالت لي – ركنته خلف الضلفة، ونفض كفيه الطليقين ليقول لها بالإشارة:

– عايزة حاجة تانية؟

قالت له: انتظر.

واعطته ظهرها، وكان في نيتها أن تمنحه بعض المال، حين عادت وجدت فكه السفلى قد تدلى إلى عنقه، ورواله يسيل على صدره دون إرادة منه، وبدلا من أن يمد يده للمال، غرسها في صدرها، واستماتت أصابعه على فردة الثدى.

رأيت قبضته عليه حين أخرجته من مكمنه ليلا، فعجزت عن المواصلة، وسألتها: أصابع من هذه؟؟

فبكت، قمت عنها وأنا أهز عريها بعنف: من وضع بصمته هاهنا في مكمن الأسرار؟

وأدارت ظهرها جهة الحائط تواري وجهها حتى لا ينكشف سرها الخفي، فجذبتها بعنف.

- ليلة سوداء ما لهاش آخر.. تلعبي بديلك يا شمس؟

- حاشا لله يا معلم.

- يد مين اللي انطبعت على البز؟

- الواد حودة. (قالتها هكذا بسرعة، ودون تدبر مسبق).

- مين؟!!

- حودة.. الأخرس.

ابن الحرام!! هل هذه آخر ربايتي له؟؟ مـع حرمـة بيتي يا أخرس الكلب! ألا يدرى أنه اقتحم جنتي بوازع مـن شياطين جهنم الحمراء. كم من العمر والجهد بذلت حتى نلت حبيبة القلب؟

وهو في لحظة مجنونة مسعورة يهـبش دون رادع، ودون إدراك للعواقب، منذ متي وأنا أكد، وأعمل؟

لا بداية لي.. ليست هناك خطوة أولى، كلها خطوات للصعود إلى سلمها العالي.

مات الأب، وقامت حرب ٦٧، انتشـرت وحـدات الجيش بين بلداننا، وكنت قد حزت دكانا صغيرا في الشارع التجاري، وجمعتني صدفة رائعة مع قائد الوحدة الذي هـبط إلى البلد مع جنوده، كان له في الكيف، والتقينا في بيت (أبو عاشور) الذي يديره كغرزة سرية لكبار القوم.

كلمة من هنا... كلمة من هناك، طلع ولد ابـن بلـد حقيقي ومجدع، وصارت صداقة حتى يومنا هذا، أرسل لـه الحتة الفليتو أو الموزة ليقع في غرام لحمتي، وأنا أسخسـخ

من نكاته التي لا تحدها حدود، لا يهمه كبـــار الحكومـــة ولا حتى رئيسها.

قال لي ذات سهرة: صرحوا لي بالبحث عن مـــورد للوحدة...

- إيه رأيك تساعدني؟

قلت له:

- من العين دى قبل العين دي.

كلمت له صاحب وكالة الخضار المجاورة لـــدكاني، وتوليت أنا توريد اللحوم، ودخلت من البوابة السحرية للزمن المواتي، ست سنوات من النكسة للعبور، تراكمت لدي أموال لا أول لها ولا آخر، أقمت بدلا من العمارتين ثلاثا، وأنشأت بدلا من المعلف اثنين، وركبت المرسيدس، وعرفت النزهات في أرض الله الواسعة، وحجزت شقة بالإسكندرية أصـــحب إليها أم الأولاد والأولاد كل صيف، وعلمت البنات والأولاد جميعا حتى حصلوا على الشهادات العليا، والزوجة الأولـــى بنت حلال، عاشت معي أيام الفقر، برضا كامل، تعاون على قدر الجهد، لم أدخلها المحل أبدا، مكنونة كالجوهرة في بيتها تربي العيال، وتجيد الطهي.

وظلت نار شمس متأججة في القلب، لا خمود لهـــا، حتى انتقضت البلد يوما على الحادث المروع الذي قضـــى على حياة زوجها، حين صدمته سيارة غريبة على مـــدخل البلد، وارتدت الأسود لمدة عام كامل.

كان الأسود يضفي جمالا على جمالها، وكان الحزن يمتزج بروحها الرقيقة فيضاعف من شفافيتها.

وتجرأت على التقدم إليها، لقيت استجابه سهلة، لـــم يعترض أحد من أهلها، وأعددت لها شقة رائعة في العمـــارة الجديدة التي كتبتها باسمها.

الصايع يلوث كنزها بيده القذرة!!

حودة صبي القهوة الذي ألحقته بالعمـــل عنـــدى، لا لشيء إلا للهو به، وليبهج نفسي بحركاته، وتقليده لخلق الله، أنا أشغله كقرد، بدلا من أن يكون للناس كافـــة استخلصـــته لنفسي.

كان يسعى إلى المقاهي يبحث عمن يرســـله لشـــراء المعلوم، أو ينتظر النداء للقيـــام بإعـــداد الجـــوزة والنـــار والمصفاة ويبدأ الرص، يفضل الأفندية ليحظـــى بالبقشـــيش

الكبير، وليدخر لزمنه واسطة لدى الحكومة، والأفندي يفضله عن غيره لأنه سينال الحظوتين، الضحك والتخدير.

إذا كان الرجال من غير الأفندية، سيقعد كواحد منهم، ويدخن كواحد منهم، ويشرب الطلب على حساب أحدهم، ينادى على صاحب القهوة، يطلب الشاي (يجعل كفه على هيئة كوب، ويدير فيه سبابة الكف الأخرى) أو يطلب الحلبة (يفرد كفه على آخرها وينفخ فيها) إذا كان المزاج حابكا يطلب القهوة مضبوطة (يجعل إبهامه على منتصف السبابة) أو على الريحة (يجعل إبهامه على طرف السبابه).

يطلبون إليه أن يقلد فلانا فيرفض حتى يلمحوا إليه ببريزة أو ربع جنيه، في حالة الرفض القاطع، يضرب بيده الهواء، ويلم شفتيه ويخرج: تك.. تك.. تك متلاحقة حاسمة..

إذا كانت الحشيشة قوية وعاركته فغلبته، يبدأ يحكي بمزاج، فهو يعرف الخباصين والمرتشين والعلاقات الحرام. يعرف الجار الذي يزور جارته – زوجة صديقه المسافر – في وقدة القيلولة، والجار الذي يزور جارته – زوجة صديقه العليل – في سوادة الليل، وملم بالرجال المغرمين بمضاجعة الصبايا والصبيان ممن لم يبلغوا الحلم، يعرف

الرجال الدون الذين لا يخافون الله ويزنون بالحمارة والكلبة، ويقدر أن يفرز المرأة التي تتكحل لزوجها من المرقعة التي تتكحل لشاب يقطع ساعات الليل والنهار في الدوران حول دارها.

وقد يلعلع فيتكلم في السياسة..

وإسرائيل هي ديان الأعور (يضع يدا على عين ويدع الأخرى محملقة) الحكومة هي زبيبة على الجبهة، وهي اليد على شكل صليب إشارة إلى قيد الحديد.

وحين يشير إلى المخبر المندس (يحرك مقلتيه ذات اليمين وذات الشمال، ويرسم على وجهه ملامح الخوف الحذر، ويدفس رأسه بعنقه في كتفيه).

إذا كان بين الرجال غريب لا يأمنه، يقول إنه في حاله (يفتح يده ويجري في بطنها – بالعرض – اليد الأخرى) وأنه يقيم الصلوات الخمس (يجعل صدغيه بين كفيه خمس مرات ويصيح بالتكبير: أبر.. أبر..).

ويعمل طول النهار من أجل اللقمة الحلال (يجمع أصابع اليد على الفم).

في آخر النهار يسامر أصدقاءه على المقهى، يشرب الشاي ولا يدخن الحشيش إلا تحلية للمعسل، ثم يقوم إلى حجرته لينام عقب صلاة العشاء (ينيم رأسه على باطن يده) لينهض في البكور ويلحق بصلاة الفجر جماعة (يرمي رأسه إلى الخلف ويجمع أذنيه في كفيه ويكبر أبر.. أبر..)

ويرفع إصبعا إلى السماء ليذكر الغريب الجاهل بأن هناك عينا كبيرة هي عين الله، ترقب أعمالنا، ويسجلها ملكان مربوطان بأعناقنا موكلان بكتابة السيئ منها والحسن.

ويفلت حودة من مطب الحديث في السياسة مع غريب يريد أن يحفر الحفر في دروب الدنيا الوعرة.

وينحني على الغابة، يشد الأنفاس، ويتوه رأسه في سحابة الدخان، وينفض يده في وجه الغريب ليقول: لا تتكلم في السياسة فتروح وراء الشمس (يمسك تلابيبه، ويغطس رأسه في عبه، ويشير إلى قبة السماء).

هل سيجعلني واحدا من هؤلاء؟؟ قتله حلال.. صحيح.. اتق شر من أحسنت إليه. لن تكون زوجتي مضغة لأهل البلد يا أخرس.. وسأربيك)..

دخل الآن شارع الزراعية التجاري، فـراح يتلقـى التحايا، ويرمي السلام على التجار الـذين فتحـوا أبـواب محلاتهم، وبدا صبيانهم يعيدون ترتيب البضـاعة، خـارج الأبواب، وعلى الأرصفة.

حاذر الزحام الذي بدأت أولى موجاته، فاتجـه إلـى يمين الطريق، حتى لا يصدمه حمل حمارة ترفـع أكـداس الخضار القادم لتوه من الحقول القريبة مـن البلـد، أو مـن القرى المجاورة.

بخور في كل مكان، وتراتيل تنطلق من الراديوهات مختلطة بأغان صباحية مشرقة، وصوت مقـرئين يـرددون قرآن ما قبل السابعة، ومقرئين من أهل البلد يمـرون علـى المحلات ليرتلوا الراتب، بعد عودتهم من المقـابر، يقبعـون على الدكك تمسك أياديهم بالصرر الكبيرة، ويتطلعون إلـى الشوارع خشية أن ترتفع شمس الضحى قبل أن ينهوا راتبهم اليومي.

مال عمود الدخان المنطلق من الداخل، فغمر وجـه المعلم، نفضه بيده، وتجدد سعاله، وقال للولد الـذي يرفـع المبخرة.

- على خفيف.. على خفيف.

واخرج له البريزة من جيبه، وضربه بـوهن علـى قفاه.

- توكل.. شف غيرنا.

قعد على الطاولة الخشبية المرتفعة يعـالج غلـق درجها حتى سمع هتاف الشيخ سعدون الحصـري " حـي.. قيوم" فانشرح صدره، وانفرجت أساريره.

وقال لنفسه في بهجة حقيقية: الشيخ رجع.

ودخل عليه فاتحا ذراعيه على آخرهما: الله.. الله.. حبيبي يا نبي.

شيخ لكنه لم يحصل على عالمية الأزهر، ولا يجيد الوقوف على المنابر، ولم يحفظ سور القرآن كاملة، كما أنه لا يؤم الناس في صلاة، أو يلقي الفتاوى والأحكام.

مجرد درويش يسعى في مناكبها، يعشق الموالد، وطبقات الذكر لا يرتبط بطريقة صوفية بعينها، ولا يميل لأن يكون فردا في جماعة، حر طليق، يتنقل من مكان إلى مكان، ومن جماعة إلى جماعة، لا يطيق المكوث طويلا في أرض واحدة، لا يخشى شيئا، ولا يجيد تقدير الأمور، حين تتلبس الحالة بدنه يغادر المكان بدون أن يتلفت وراءه، لا يهمه ترك العمل، والزوجة، والأولاد، يلبي النداء الغامض، ويسعى حتى يحط في المكان المنذور، يقضي المدة حيث يشاء الله، ومرة أخرى يلبي النداء فيعود فجأة، دون توقع من أحد.

يعمل مع أخيه الحاج رضوان الحصري في محل كبير لصناعة الحصر. لكل طريقته في الحياة، الحاج رضوان رجل نزيه يرتدى الثياب النظيفة دوما يميل إلى البياض، العمة، والجلباب، والنعل، حتى المسبحة التي لا تغادر يده، وهذا البياض الذي يحبه يضفي على وجهه

الأشقر نصوعا، وشعورا خفيا بالرصانة والثقة مع بسمة لطيفة متعلقة بالوجه لا تنسحب عنه حتى لو وصل الغضب منتهاه.

عاش مع زوجته الطيبة دون أن ينجبا الولد، ولا البنت، فجعل من أولاد أخيه أبناءً له، يحدو عليهم، ويدنيهم منه، ولطول فترات غياب الأب تعلقوا به وجعلوه أبا حقيقيا، ينادونه "يا آبا" ولا يتنازلوا عن هذا النداء في حضور الأب الأصلي، فهم يعلمون أنه سرعان ما يترك الدار والمحل، بل يهجر البلد جميعا ويختفي إلى حيث لا يعلم مكانه إلا الله.

والشيخ سعدون – رغم هذا – بارع في عمله، يجيد رص السمار مع الخيوط ليضع الحصير أو المصلى، يقعى فوق الآلة الخشبية، ويترك أصابعه النشطة تعمل وحدها تمرر السمارة من خيط إلى خيط بخفة، وباليد الأخرى يشد الخشبة المستعرضة ليدق بها النسيج، فينضغط الحصير، ويتماسك، يقضي يومه هكذا حتى ينهي ما بدا.

في أيام أخرى تراه مع صبيان المحل يرفعون الحصر إلى الرحبة الواسعة عند ناصية الشارع، يفردونها تحت شمس النهار حتى يجف سمارها، يمدد الشيخ الواحدة

تلو الأخرى، وينحني بظهره عليها ليضم السمار جيدا إلـــى الخيط حتى يزداد تماسكا، وفي النهاية يربط أطراف الخــيط بشدة، ويكون الحصير مهيأ للزبون.

يعمل بهمة دون أن يكف عن الحديث مع نفسه، قــد تأخذه الجلالة فجأة، فيهتف بأعلى صوته: حي.. حبيبـــي يـــا نبي.

ويلقي العمامة على الحصير، ويروح يتقلــب فـــي مساحته ذات اليمين وذات اليسار مصدرا وجهـــة للشـــمس، ويضرب الكف بالكف في جذل لا يدرى أسبابه أحد غيـــره: الله.. الله.. يا أبا خليل.

فيعلم الناس أن رحلته هذه المرة قريبة، فلن تتجـــاوز الزقازيق ليلحق بمولد (أبو خليل) أشهر أوليائهـــا، وربمـــا هتف وهو يضرب ساقية في الهواء: الله.. الله. يا قناوى.

فتكون الرحلة إلى قنا، أو يهتف باسم الدسوقي فتكون الرحلة إلى أقصى الشمال، إلى دسوق.

هكذا يستنتج الناس، وربما أخطأوا، فالمولد – مهمـــا طال– لن يزيد عن أسبوع أو أسبوعين، وإذا كان بعيدا قـــد يحتاج إلى شهر، ولكن الشيخ يغيب الشهور الطويلة، ويختفي

العام كله، والعامين، وفي إحدى رحلاته اختفي ما يقارب الست سنوات.

المعلم عثمان ينتظر قدومه المفاجئ، فتشيع في جسده الفرحة، هكذا سيجد لليله الطويل صحبة، سيجد ليوم العمل من يسليه، ثم إن الشيخ لا يدخل عليه فارغا أبدا يميل إليه هامسا حتى لا يلتقط رجال المعلم كلماته:

- جايب لك.. محبة في رسول الله – خلطة تخلي المؤمن يغفل عن صلاته.

ويضرب يده في جيب الجلباب الصعيدي المخطط بالطول ويخرج الخلطة الملفوفة بورق سميك، يقربها من أنف المعلم.

- شم بالصلاة ع الحبيب.

فتشيع في رأس المعلم ضجة. تدفع الدم الخامد.

- الله.. الله يا مولانا.

- دى بالصلاة على الغالي تصحنها بعد صلاة المغرب، وتخليها لغاية ما تنوى. قبلها بساعة بالضبط، ما تخدهاش على جوف فاضي.. وتوكل على الله.

- تشرب إيه يا مولانا؟

- قهوتنا المظبوطة بالصلاة على النبي.

ويشير المعلم إلى صبي انزوى في ركن يشفي اللحم من العظم.

- قل لهم اتنين مظبوط.

وحين يدخل الولد بالصينية يعض الشيخ كتلة بنية داكنة جعلها بين إصبعيه، ويرفع منها بعود ثقاب قطعه يذيبها في قعر الفنجان بعد أن أزال الوش.

- أصلب حيلك يا رجل.. شايفك مش ولابد النهاردة.

- حكاية طويلة شاغلة بالي يا مولانا.

- كله يهون بأمره.

- معرفش اعمل إيه؟ ولا ابدأ معاك منين؟

- انكت صدرك يرتاح.

- الواد حودة الأخرس يتهجم على بيتي!!

- يا ساتر..

- النجس.. والله لا قطع دابره.

وقص عليه الحكاية كما ذكرتها شمس..

رفع الشيخ يده، مررها على كتفه ﴿ قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق...﴾.

﴿ قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس.. ﴾

ما كاد ينهي المعوذتين حتى سمع قعقعة العجلات بالخارج، توقفت العربة الكارو أمام الباب بالضبط وتقدم الرجال ليرفعوا الذبيحة إلى الخطاطيف المدلاة من السقف. كان اللحم ساخنا لم يزل، يسيل منه الدم ويتساقط على البلاط الأبيض الممسوح.

دخل حودة زائطا حين لمح الشيخ، وانحنى عليه ليأخذه بين ذراعيه ويقبل لحيته، وأشار إلى سقف المحل: آب.. آب...

وابتسم له الشيخ بود، وربت على كتفه يباركه، ثم جره نحو المعلم ليسلم عليه، فاستدار حودة نحوه غير أن الرجل لم يمنحه الفرصة، افتعل إصدار الأوامر، فعاد حودة بظهره، لا يدرى سببا للقتامة التي هبطت فجأة على وجه معلمه، وأدرك بينه وبين نفسه، أنه سيقضي يوما عصيبا في عمله، هكذا اعتاد غضبة المعلم التي تأتي دون سبب وتزول دون سبب، ويوم سعادته الحقيقي حين يكون راضيا عنه، فلا يكف عن مداعبته، ويطلب منه المشوار تلو الآخر، وهو لا يهمد، يستجيب بلهفة، ويقضي ما أمر به المعلم دون تأخير.

أراد الخروج من المحل، فلحق به الشيخ، وأمسكه من يده، وأشار إليه أنه يريد الحديث إليه في أمر هام.

وانتحى به جانبا مختفيين بين جزئين من ذبيحة معلقة على واجهة المحل، قال له الشيخ إن المعلم قد فاتحه في موضوع زواجه هذا الصباح.

تهلل وجه حودة "وأنا بدورى أقنعته بأن الولد يعمل لديك بإخلاص، وأنه قد بلغ السن الذي يستوجب أن يجمعه وزوجه بيت واحد".

وأنه قد حصل على موافقة المعلم، وسيتم زفافك هذا الأسبوع، وضربه على بطنه مداعبا: ابسط يا عم.. إياك ما تكسفناش. وفهم حودة كل الإشارات، ولكن الغصة لم تفارق حلقه، فوجه المعلم لا يشي بالرضا، ثم كيف أنهى موضوعا ألح عليه لسنوات في لحظة واحدة. الشيخ يصرح له بحاله باشة، مفرحة والمعلم تجاهله عند دخوله ولم يرد السلام عليه ككل صباح.

أى الخيارين يصدق؟ هل في الأمر خدعة ما؟

وأبدى شكوكه للشيخ، وأشار إليه بإصبع متوترة متسائلا: ولكن سحنة المعلم تغاير ما صرحت به، رد عليه

الشيخ بأن المعلم مهموم بأمر لا علاقة له بك، ثم أشار إليه مرة أخرى: ومن ستكون العروس؟ هل يعرفها؟

وأجابه الشيخ بالإشارة: ألا تثق في معلمك حين ينتقي لك عروسا فستكون من أحسن الناس.

والسؤال الأخير: هل سيساعدني في تكاليف العرس؟ وأشار إليه الشيخ مطمئنا: لن يكلفك مليما.

ثم دفعه بلطف ليقول له: بطل أسئلة وشف شغلك حتى لا يرجع المعلم في كلامه.. لابد وأن تثبت له جدارتك في كونك أحد رجاله الخلصاء.

وعاد الشيخ ليتخذ مجلسه إلى جوار صديقه الذي كان ينصت لفورة الدم التي تصاعدت في شرايينه. مزيج القهوة مع فص الأفيون ألهب وجهه، وأدفأ أطرافه، وأشاع البهجة في عروقه، فخفت غضبته حتى مال بوجهه نحو الشيخ يسأله:

- قلت له إيه؟
- قلت له حنجوزك.
- إيه!! بدل ما نعاقبه نكافئه!!

- علشان خاطر النبي سيب لي الموضوع.. أنت بس عليك الدفع والفرجة.

- أمرك.

وعاد بظهره مسندا رأسه على الحائط يتابع رجاله، منهم من صعد إلى موقعه فوق البنك الرخامي، ومنهم من راح يرفع الدهن و (الشغت) عن اللحم الأحمر، ومنهم من يعيد رص فصوص الكبدة في الثلاجة الزجاجية المضيئة، كما ظل يتابع قدوم الزبائن مع صعود شمس الصباح ومحاولاتها الدءوب في اقتحام الباب لتتمدد بطولها على الأرض المرقشة بقطرات الدم.

- ٤ -

تكلم المعلم عثمان معك يا حودة وكأنما ضرب على وتر مشدود مشتاق للعزف، ومال المعلم على الشيخ سعدون وأدار ناظريه إلى رجاله الذين يعملون حوله، غامزا بعينيه:

- والا إيه يا رجاله؟

قالوا في نفس واحد: كله من خيرك.

هجمت على يد المعلم تريد لثمها، فأرخاها الرجل للشفة المحنية، وقال بالصوت العالي: استغفر الله.

طلب بالإشارة (ورينا شطارتك، وأعمل بجد حتى أخلص النية)

واتقدت شعلتك يا حودة حتى كانت أن تحرقك نارها الوهاجة، رحت تخرج وتدخل، تهبط وتصعد، ترفع وتحط، وعينك على المعلم (هل تراني؟)

قبل أن تغادر المحل سألته عن العروس المنتظرة، فجمع لك المعلم أصابع اليد الواحدة (ستراها ليلة الدخلة) وخبطك على قفاك مداعبا (وتفض بكارتها)

وهززت رأسك بفرح.

أم لا تثق في معلمك يا حودة؟

(معاذ الله) وأشرت إلى السماء

ربنا اعلم.

كفاك ما أعلنه معلمك، وقلت لنفسك (فلا تنظر إلى يوم الخميس) (فات الكثير وما عاد إلا القليل) أشار إليك زكي بأن تأخذ العدة، وتذهب إلى الغرفة لتعد العربة لسهرة الليل، وسيلحق بك حين يحظى بنصيبه من الكبدة المتبقية في المحل.

رفعت الأدوات في كيس من الخيش، وجعلت الطشت الصغير تحت إبطك، وصف المدى حول وسطك.

الشمس الغاربة على أطراف البيوت العالية، صفراء واهنة، وزحام شارع الزراعية تلاشى تقريبا. التجار الذين يهبطون البلد يوم السوق غادروا إلى مدنهم رافعين بضاعتهم على عربات (الداتسون) نصف النقل، وتجار البلد بدأوا يرفعون أشياءهم على عربات الكارو.

وتناثرت أوراق الخضار على الأرض بانتظار جرار البلدية، داستها الأقدام فاختلطت بطين الشارع، وانتشر الماعز في كل مكان يسعى في مرعى من بقايا الخضر،

يسير في قطيع مقتحما الأرصفة والدكاكين المفتوحة، يهشه أحدهم فيجري في رعونة حتى يطيح بما يلقاه في طريقه.

صعدت الطوار المرتفع حتى لا تضطر لاقتحام القطيع فضربت أنفك رائحة الفسيخ المملح، التفت إلى يسارك لتحي دسوقي الفسخاني، فأشار إليك دسوقي بتهليلة غير معتادة، ورفع يده إلى عمامته ليقول لك: (مبروك) وأشرت إليه: (كيف عرفت).

أجابك دسوقي بإشارة تؤكد بأن الشارع كله يعلم، ثم رفع كفيه المضمومتين على صدره وقبلهما بشفتيه ليقول لك: (إنها جميلة جدا) فدهشت، ونطرت يدك في الهواء (هل نشر المعلم الخبر؟) (أم أن صبيانه أذاعوه فعرف البائع والتاجر والزبون؟ إن المعلم رجل طيب، فرح من أجلي وأراد دعوة الناس كافة، والغريب أن الجميع يعرف العروس، الكل قد اتفق على نفس الإشارة).

وهبطت الطوار لتسير نحو الجهة الأخرى من الشارع فتلتقي بصاحب الطابونة، فأشار إليك بإشارة الفسخاني، ومررت على الفكهاني فكرر نفس الإشارة، فاضطررت للتجاوب معهم، وأبديت سعادتك للجميع (أنا

لست صبي جزار غلبان لا يهتم بي أحد، علـــى العكـــس، الجميع فرح من أجلي وكأنني الأعزب الوحيد في هذا البلد).

(هل أكمل الشارع فأمر على شواية السمك، وتاجر أواني الألمونيوم، والفخراني، وبائع الجرائـــد؟ أم اختصـــر الطرق فأصعد سلم المحطة وأسير على الرصيف وحيـــدا؟ فلأكتف بهذا القدر من البهجة وأتفادى الناس حتى يأتي وقت الدعوة للعرس).

وبدأت ترقي ســلم المحطـــة، ثـــم اســـتويت علـــى الرصيف المبلط فتلقفك المعاون جالسا على الكرسي في ظلة البناء الإنجليزي العريق.

- مبروك يا حودة.

ورفع يده عاليا ليهزها فوق شعره النائم على جنب، وتقدم إليك ليشد على يديك، وأشار إلى كلتا عينيه ليعلن لك أنه سعيد جدا، وأعقبها بإشارة رفع الكفين إلى الصـــدر ثـــم تقبيلهما بالشفة.

شكرته، ودخلت في حلقة المسافرين الواقفين تحـــت المظلة الخشبية بانتظار قطار الخامسة والنصف.

قطعت الرصيف باتجاه البوابة الحديديـــة، ولمحـــت القطار القادم من الجنوب يثير الغبار في مدخل البلد، لكنــك أبدا لم تسمع صفيره، ولم تطرق أذنك دقات الجــرس الـــذي ينبه بانغلاق البوابة، إنك تقدر المسافات بما ترى عينـــاك، لا بما تسمع أذناك، نظرت إلى الخلف لتتأكد من قدوم القطـــار المقابل فرأيته يدخل بطيئا عنـــد التحويلـــة، يتلـــوى جســـده الثعباني مستجيبا للقضبان الحديدية، فقدرت أنـــك تســـتطيع العبور إلى الجهة الأخرى، انحنيت تحـــت البوابـــة النائمـــة واتخذت طريقك باتجاه مقهى متولي. كانت عزيـــزة الخنفـــا تسعي بين الكراسي ترش الماء على الأرضية لتسكن الغبار الذي تثيره حركة السيارات المسرعة. أشـــرت إليهـــا بأنـــك ستترك أدواتك هنا، حتى تعود إليها بعد أن تغتسل. وأشارت إليك (لماذا تغتسل من الآن؟ انتظر إلى يوم عرسك فقد صار قريبا جدا). فابتسمت لها، وسألتها (كيف عرفت الخبر؟).

دلقت بقايا المـــاء علـــى الأرض، وقالـــت (الكـــل يعرف؟) ورفعت كفيها إلى صدرها، ومنعتهـــا مـــن إكمـــال الإشارة وقلت لها (إن الجميع يقولون إنها جميلة جدا وأنا لم أرها بعد).

وشلحت ثوبها إلى أعلى وضمته حول ردفيها، ومشت أمامه متقصعة (ولكنها ليست أجمل مني).

بصقت خارج المقهى، ثم دستها عند خروجك إلى الشارع الكبير المزدحم بالسيارات.

بعد قليل انحدرت إلى الشارع الفرعي الطويل، صارت الشمس وراءك، فرمت ظلا مضاعفا أمامك. كان يسبقك. يرتفع وينخفض، يتسلق أحجار الطريق، ويسيل مع بقع الماء المدلوق أمامك، يتمطى وينكمش وفقا لحركتك في السير، يظهر ثم يتلاشى إذا وقع عليه ظل دار مرتفعة البناء.

حين دنوت من معمل الجبن رميت السلام على صاحبه الجالس على كرسي أمام الباب بانتظار قدوم النسوة بحلبة المساء.

مكتوب عليك يا حودة أن ترى خروجهن مرتين..

تعمل اليوم بطوله بين حلبتين للماشية..

تبدأ نهارك مع الفجر، وتنهيه مع أذان المغرب.

ليس هذا فقط، لا راحة لك بعد، مطلوب أن تشطف بدنك سريعا، الخروج بعربة الكبدة، لتبدأ السهرة، كد وجهد، عمل متواصل، لا راحة لك حتى تضمك ظلمة القبر.

ربما إذا تزوجت انفصلت عن أخيك، واكتفيت بعملك بالمحل لتجد الوقت الكافي مع زوجتك، تلاعبها، وتـــداعبها، تخطف القبلة، وتضمها في حضن طويل، يعوضك عن زمن الحرمان، فلتأت هي، وليكن ما يكون، ستمنحها أوقاتا للمتعة لتهنأ بها عمرها كله، فلا تبص لأحد غيرك، واملأ عينيهـــا كرجل فحل، ليس كمثله أحد، فلا تلتفت عن يمينها أو عـــن شمالها، وهل سيتركها لتجد فرصة لهذا الأمر؟

رأى النسوة من الجارات مجتمعات في ظلـــة ســـور البيت الكبير، تميل عليهن من علٍ أغصـــان التـــوت كثيفـــة الظل، أشرن إليك فاقتربت مترددا.

هؤلاء الشمطاوات سيبدأن الثرثرة، سيسألنك، ولكنك ستراوغهن، فهن لا يملكن غير ألسنة طويلة، تنقل الأخبـــار ببراعة، في كل الأنحاء، ثم إنهن دوما يسخرون من الجميع، ولا يعجبهن العجب، ولا الصيام في رجب.

لمح فكيهة بينهن بثوبها الصيفي الخفيف (تعذبني هذه المرأة. آه لو كانت عروستي في جمالها، والله لن تنقطع لـــي عبادة، سأقيم الخمس، وأصلي الفجر حاضـــرا، وأســـجد لله صبحا ومساء)

كانت فلقتي الثديين تضويان مع آخر شعاع، فتـــدلى فكك السفلي، وأحسست بروالك يسيل دون وعي منك، وهي القاتلة لم تكتف بذلك، أطلقت يديها لتبديا إبطيهـــا النظيفـــين، فكت عقدة منديل الرأس الملون، ورفعتهـــا عـــن شـــعورها، فانساب سواده على ظهرها، وسقط بعضه ليغطي أقراطها، لفته في كعكة كبيرة، أجادت عقدها من الخلف، ثـــم أعـــادت المنديل إلى وضعه، بعد أن أحكمت ربط شريطيه، وتركـــت خصلة لامعة مدلاة عند الجبهة، وفاجأتك بغمزة من عينها.

كدت تنتصب، فضغطت على نفسك بشدة، وكززت على أسنانك، فهبط الانتصاب من تلقاء نفسه حـــين تنقلـــت عيناك بين أخريات، سقط بصرك على (أم علي) صـــاحبه البيت تجمع عظامها النحيلة في شاش قديم، تآكلت أطرافـــه، كانت تحدق فيك بعين يقظة لا يفارقها البلل الســـائل علـــى تجاعيد الوجه، برزت شعيرات داكنة فوق شـــفتيها وعلـــى امتداد ذقنها، إلى جوارها تتربع زوجة (أبو ســـنة) ببنيانهـــا القوى الراسخ لها نظرات مبتذلة، وتعليقات سوقية، تضـــحك لها النسوة، ويهمسن بها في السر، امـــرأة خبـــرت الحيـــاة، ودارت في أسواق الدنيا، وعرفت العالي من الواطي، تاجرة

سمك بجدارة، مستفزة دوما، ولا تدع فرصة لامرأة تمد يدها إلى (المشنة) أبدا، تفقع الشخرة صارخة في وجهها: امشي يا لبوة من قدامي خلي يومك يعدي.

لا يهمها إذا باعت أو اشترت، لها زبون محدد سلفا، تبيع له أسماكها، بل تحجزها له، ولما يهل عليها بين زحام السوق، تستقبله بتهليلة صادقة:

نهارنا فل بالصلاة ع النبي.

وحين يقف أمامها على الفراشة تكون قد سبقته في لف الكمية المطلوبة دون حاجة إلى الوزن، يدها من طول الخبرة صارت كالميزان: طلبك حاضر. ولما يمد يده بالثمن تدفعها بحماس حقيقي: والنبي تخلي.

التصقت ابنتها ببنائها العظيم كانت تركز على الفخذ الشامخ واضعة ذقنها على كفها تتأملك. وتبسم إليك، تفاديت النظر إليها، وشعرت للحظه بالغثيان، هذه البنت راشحة من أسفل (أقطع ذراعي إن قامت سنجدها راقدة على بركة من الماء) (هل عميت عيناى حين لم أدرك ذلك) (جميل أن أتزوج بامرأة تنشر سراويلها المبللة على داير السرير كل صباح) (سألاحق عليها أم علي أولادي منها) (تغور من

وش أمهـــا) (والحمـــد لله أن المعلـــم أنقـــذني بزيجـــة مضمونه،وبدون تكلفة).

قلن لك في صوت واحد: مبروك يا حودة.

فرفعت لهن يدك عاليا لتضمها على رأسك محنيـــا قليلا إلى الأمام في تواضع ذليل، وأشرت لهن بكلتـــا يـــديك داعيا لهن بأن يبارك فـــي بنـــاتهن ليجـــدن أولاد الحـــلال، ويسترن في بيوتهن.

كن كلما رأينـــك مقـــبلا يكـــركعن، ويبـــدأن فـــي مداعبتك..و.. وتبدأ أنت في مغازلتهن، فتغمز مرة، وتقرص في الخصر مرة، أو بحركة خفيفة تجعل يدك تثب إلى صدر واحدة منهن، ثم تروح تقلد رجالهن في مشيهم، وفي الطريقة التي يدخنون بها الجوزة، أو تسرد لهن – بالإشارة – بعضا من خفاياهن، أو تسر لهن عن واحدة غائبة عن الحلقة.

إن لم تكن في مشوار أو مشغول بعمل تقعد بيـــنهن حول قفة الحب تنقيها من الطوب الصغير، وتشاركهن فـــي قطف أوراق الملوخية والخبيزة، والصبي الذي يلهو بينهن أو الرضيع الذي تلفه أمه في حجرها، ترفعه بـــين ذراعيـــك تعضه مرة، أو تدغدغ جوانبه مرة، ولا تتركه حتى يبكي لا

عن كراهية معاذ الله – ولكن مداعباتك – هكـذا – قاسـية جافة، وأصابعك التي تغرسها في لحـومهم اللينـة رفيعـة متشنجة، ولا مانع عندك حين تريد إعادة الرضيع إلى أمـه الخائفة عليه من أن تدع ظهر كفـك يغـوص فـي ثـدييها الكبيرين الممتلئين.

اليوم لا وقت لديك لكل هذا اللهو، فرأسك مشـغول بألف شغلانة.

قلن لك: حيجوزوك يا حودة.

فجلست بينهن لبعض الوقت تحكي لهن ما دار بينك وبين المعلم عثمان – أشرت: المعلم (فتلت الشارب، ونفخت وجهك، وصنعت انبعاجك على البطن) سـيزوجني (أدرت خاتما وهميا في البنصر، ولصقت السبابتين، ثم صنعت ثـديا على الصدر) سيتم ذلك يوم الخميس (أكدت بإصبعك ثـلاث مرات) وقد انتقى لي عروسـا كـالقمر (قبلـت أصـابعك الملمومة، وأشرت إلى السماء) ثم طلبت إليهن أن يحضـرن زفافك ليرقصن ويطلقن الزغاريـد (سـقفت فمـك بكفـك، وحركت لسانك بزغرودة طويلة ممطوطة).

ولما طلبن إليك أن تقص عليهن ما ستفعله مع عروسك المقبلة احتضنت الهواء بحنان، ونظرت جهة فكيهة مشبوبا، أغمضت عينيك، ومططت شفتيك لتقبل بلهفة وعذوبة اليد والكتفين.

وأشارت لك فكيهة بأنها سوف تلعب بذيلها، بدأت تصرخ في شخص خفي تراه أنت دون غيرك بررره.. بررره.. خبطن صدورهن، واستغرقن في ضحك قطعته إفاقة متأخرة أعقبتها (يخرب بيتك يا أخرس).

تركتهن غاضبا تدفع يدك بعنف في كل اتجاه، تدور عليهن ساخطا.

وتعود للنظر أمامك لتوازن جسدك مع حفر الشارع وبصقت خلف ظهرك قبل أن تدخل من الباب، حيث التقيت في المدخل الممتد بعايدة العمياء تضع الطبلة الفخار تحت إبطها، تنقر عليها بمهارة لتراقص أختها الصغيرة العمياء التي حزمت وسطها بقطعه قماش قديمة، سحبتها من رأس أختها الوسطي نوال التي استغرقت في تصفيق على إيقاع الطبلة.

واندهشت من هؤلاء العمياوات المبتهجات دائمـــا، لا يعكر صفو حياتهن شيء ولا ينشـــغلن بـــأكثر مـــن رحلـــة (الترب) واللف على البيوت لقراءة الراتب.

عايدة فاتها سن الزواج، وصـــارت كهلـــة، تبـــرز الشعيرات السميكة على أصداغها، ويبرز ضبها خارج الفـــم مع لثة حمراء دامية، استسلمت لمصيرها، واكتفـــت بحفـــظ قصار السور، وبعض الأغاني التي تقيم بها الأعـــراس فـــي مجتمع النساء حين يدعونها لمثل هذا الأمر، تنال نصـــيبها، وتعود به إلى الدار سعيدة بما حصلت من مال وبما ترفعـــه أختها من آنية تفيض بطعام العرس، تعطي المـــال لأمهـــا، ويجتمعن على الطعام، ينقلنه إلى أفواههن الشرهة، بهجة لا يعادلها في الدنيا بهجة أخرى.

بينما أنت ساخط لحالك، غير راض بمـــا قســـمه الله لك، تريد أن تحوز بيتا خالصا لك، لا غرفة تشارك أخـــاك إيجارها، وتشاركه في إقامة طال مداها جدا، وكانـــت حتـــى أول النهار تبدو ألا نهاية لها (الحمد لله الذي ألهـــم معلمـــي فانتقى لي العروس، والبيت الجديد، وتكفل بأمري، فلن أخسر مليما، وأنا من جهتي أستحق الخير، قضيت عمـــرى معـــه،

أخدمه في الصغيرة والكبيرة ألا يحق له أن يجازيني وأنا رجله)

انحرفت جهة الباب قليلا لتعطي الفرصة لتلميذ الأزهر الذي أحكم غلق باب غرفته، وخرج مائلا على ساقه المريضة، يضغط عليها بيده، ويسحب الأخرى وراءه، ليثير غبارا خفيفا. كان مبللا تماما يقطر ماء الوضوء من أطراف شعره، ومن أصابع كفيه، والتقط أنفك رائحة المسك تفوح من جلبابه الأبيض النظيف، أسند يده على الجدار، وأشار لك بالتحية فهمهمت ب (آب..آب..) تدعو له بالخير والصلاح، وأشرت إليه أن يدعو لك، ولا ينساك في صلاته.

وفوجئت بإشارة الجار، وكنت تظنه آخر من يعلم، فهو غريب، ولا صلة له بأحد، يكتفي بالتردد على المعهد، ثم يقضي يومه مكبا على كتبه، في ظلام غرفته، ولا يراه إلا خارجا إلى المسجد أو قادما من المسجد.

- عقبال البكاري.

- آب..آب...

وانعتق غلق القفل في يدك، سحبته من الرزة، واقتحمت ظلمة تبحث عن أدوات الحموم لتشطف بدنك،

وتدعكه بالليفة ليجلو الجلد من طبقات الوسخ المتراكمة مــن دم البهيمة المختلط بعرق الجري، وعرق النوم في حجرة لا تداخلها شمس الله الحية.

وقفت عاريا في الطشت بعد أن ملأت كفك اليســرى برغوة الصابونة، رفعت قضيبك النائم لتدلكه بنعومه، وتوقظ شهوته الخامدة، أغمضت عينيك، ورحت تســتدعي نســوة السوق، تركب من قطع الأجساد التي احتجزتها امرأة كاملة، كعادتك كل يوم.

ودائما تتغلب فكيهة على الجميــع، تمحــوهن مــن خيالك لتتصدر المشهد، بعريها المخبل، تصير كل النساء، لا امرأة واحدة، ويبدأ مشهدها الذي رأيته ذات ليلــة ثابتــا، لا خلاص منه، كانت الحشيشة قد أطاحت بعقلك وعــدت مــن سهرتك مسطولا تماما، ولما اقتربت من الباب الكبير نازعتك نفسك أن تبص من خصاص النافذة الخشبية الطويلة المطلــة على المدخل.

ورأيت فكــرى محشــورا بــين هضــبتي فخــذيها الشامخين، تعطيه، وتأخذ منه، بهزات خفيفة، ترتفع حــدتها الهوينى، ووجهها المعذب بالمتعة يدور على الوسادة نــاثرا

الخصلات العرقانة، نسيت نفسك يا حودة، وغرست كامل وجهك بين الضلفتين اللتين انفتحتا التصقتا بالجدارين، ولشدة استغراقك في المشاهدة لم تدر أن رأسك مرق من بين قضيبي الحديد.

حين وصل الزوجان إلى ذروتهما الهائجة تجاوبت معهما فصرخت بعزم صوتك، فالتفت إليك فكرى من وراء ظهره، وانسحب بعريه هادئا متماسكا، حاولت تخليص الرأس الساقط إلى الداخل، فضغطها الحديد، بلا رحمة كأنما تمدد للحظة، ثم عاد إلى انقباضته.

وفكيهة التي قامت مذعورة جمعت جسدها تحت الغطاء تزوم، وتسب، وتشوح، وظللت مشغولا بتخليص رأسك حتى جاءك فكرى من الخلف يكيل لك الضربات على مؤخرتك بنعل ثقيل يحمل كل أدران الأرض الملوثة، وأنت لا تقدر على الصراخ حتى لا توقظ الجيران، ولا ينتبه إلى فعلتك أخوك النائم في الغرفة المجاورة، تتلقى الآلام بصمت حتى استطاع فكرى أن يشد القضيبين كلا في جهة، وسحب الرأس ليدفعك بعنف إلى الجدار.

داخ رأسك، فسقطت على الأرض، ولم تنتبه لنومتك حتى جاءك صوت أمين الأعمى من مئذنة جامع السوق.

اليوم آثرت أن توفر ماءك ليوم عرسك فـــلا يهـــدر ويظل محتفظا بعنفوانه، ملت على الإناء تنقل ماءه الفـــاتر على جسدك الذي دلكته بالليفة جيدا.

بعدها.. خرجت من الطشت تجفف ما بـــين إبطيـــك وفخذيك بفوطه مهترئه، ودخلت في الجلباب النظيف، وتمليت كثيرا الوجه الجاف في بقايا المرآة المغروســـة فـــي طـــين الجدار، ونثرت قطرات العطر من زجاجة صغيرة، ترقد بين طيات الهدوم.

بعد أذان المغرب خرجت مـــن غرفتـــك مسبســـب الشعر، تخب في الجلباب، وتدفع العربة أمامـــك، لـــم تكلـــم النسوة حين مررت على حلقتهن، ولم تلتفت إلى إشـــارتهن، فأنت الآن جاد وصارم متجه إلى مجتمع الرجال، ســـتدعهم للسمر في عرس يمتد لآخر الليل.

وهناك على مقهى متولي قد تلتقي بأفندي يشير إليك بالذهاب إلى تاجر الحشيش، وتوافـــق إذا رأيـــت اســـتحقاقه للمشوار الطويل، ولا تمانع فـــي إعـــداد الجـــوزة والنـــار

والمصفاة، وتبدأ الرص، تطقطق حجرين حتى يأتي زكـــي، فتبدأ بإشعال نار الموقد، فإذا صفت النار وراقت أدخلته أسفل صينية القلي الواسعة، تدلق الزيت فيها، ويفرد زكي الكبـــدة داخل الفاترينة الزجاجية، يقطعها قطعا صغيرة على قرمـــة خشبية سميكة يغمسها في الردة الخشنة، ثـــم يرفعهـــا إلـــى الصينية لتتابعها أنت بالمقصوصة ذات اليد الطويلة.

تغسل الطماطم والخضار جيدا في صنبور المقهـــى، وتعد سلاطة حريفة، ويكون زكي قد أحضر الخبز الطـــازج معه من الطابونة، يفرده على سطح الفاترينية ليجف قليلا.

إذا حضر الزبون يطوى الرغيف، ويجعله شـــطيرة واحدة يملأها بقطع الكبدة بعد وزنهـــا، ثـــم يـــرش عليهـــا البقدونس وقطع السلاطة.

ومن حين لآخر يلكزك لتنادي على الزبون، وتصيح بأعلي صوت:

– بيك.. بيك..

لا علاقة لبضاعتك بما تهتف به، ولكن زبونك مـــن المترددين على المقاهي، أو صـــبية الموقـــف، أو الغربـــاء

المارين على البلد في رحلة ليلية طويلة يدركون مقصـــدك، ويعجبهم نداءك، والرغبة المحبوسة في الإعلان عن طعامك.

بل ربما جاء البعض خصيصا لا من أجل الحصول على ساندوتش ولكن رغبة في الهزار معك، ومعاكستك بما يثير حفيظتك ويستفزك، ولا يطلقك حتى تهدده بالمقصوصة، تشيح رأسه، وقد يصل الأمر بأن تترك الفرشة لتجرى وراءه مهددا، جاعلا يدك على عنقك لتقول له بالإشارة: (سأذبحك إذا تمكنت من الإمساك بك.)

- ٥ -

صلى الشيخ سعدون العشاء في الجامع الكبير، انخلع من المصلين خلسة حتى لا يسأله شقيقه الحاج رضوان عــن وجهته، وهو يتلو قصار السور التي اتبعها بأدعيــة دخــول الليل، والمسبحة التسع والتسعون الطويلة الملونة لا تفــارق يده.

لم يتجه إلى بيته المواجه للجــامع، واتخــذ طريقــه هابطا العلواية إلى حي السوق.

(الأولاد ليسوا في حاجــة لســهرتي، ولا لوجــودي معهم، إنهم يلتفون حول عمهم رضوان، واكتفــوا بــه أبــا، يهللون لبعض الوقت عند دخولي المفاجئ عليهم، سرعان ما يتلهون عني، ولا يرضى واحد منهم المبيت بحضني، القســم الذي يقيم فيه العم هو بيــتهم، ويمــرون علــى حجراتــي كالغرباء.

وزوجتي لا تنتظر مني الكثير، فلا رجاء لي معهــا، تعيش في البيت ليس حبا فيه، وتعلقا بشخصي، لتصير – كما تقول– قريبة من الأولاد، ثم إنها لا تملك مأوى بديلا عنه).

همود، ووخم عاطفي، ومعاشرة تعافها النفس.. لم يحدث هذا فجأة، وإنما على مراحل، وكانت النهاية حين اشتكي ضعفه معها لأصدقاء السهرة في غرزة (أبو عاشور) وانبرى واحد منهم ليقول: علاجك عندي.

- الحقني به الله لا يسيئك.

- بكرة يكون عندك.. وتدعي لي في ليلة مفترجة.

- ادعي لك بزيارة الرسول إن شاء الله.

وفي الليلة التالية طلب طقما من (أبو عاشور) وحلف على الرجال ألا يقطع واحد منهم من حشيشته:

- الدعوة دعوتي.

وانتظر الصديق الذي يحمل معه دواءه، وجاء متأخرا، وسعوا له في الحلقة، وحين مد القنصل الغابة لفم الشيخ حركها بلطف جهة صديقه، وحدق فيه مباشرة.

- مساء الهناء يا أسطى.

وطقطق الأسطى العجلاتي النار حتى فرقعت، وتراقصت جمراتها على الحجر، ثم شد نفسا قلب به أحشاء الجوزة حتى طفح الماء على شدقيه واتقدت نار بيضاء صافية، أتت على المعسل والتعميرة، فلم تبق شيئا.

– الله ينور.. قلبك أبيض.

وصفق الشيخ بكفيه، وترنح (أبو عاشور) في جلسته خلف الرمالة، ثم مسح اللحية المرسلة، دون شارب.

– حبيبي يا نبي.

وقضي الأسطى السهرة دون أن يبدي أية إشارة بأنه أحضر دواء الشيخ، وانتظر حتى خرج إلى ظلام الشارع، سحبه على جنب، ومد له يده ب (حُق) صغير.

– قبل ما تقرب من الجماعة ما تشربش ميه، مفيش مانع من لقمة خفيفة، ولما تحس بنية الانتصاب تاخذ بأصبعك، وتدهنه كله.

– من أوله لآخره؟

– طبعا.. حنوقف حتة ونسيب حتة؟!!

– يعني مش حيسبني في نص السكة وينام.

– إن شاء الكريم حديد للصبح.

فعل بنصيحة الرجل، وشعر بالانطفاء بغتة، بعد الدخول بقليل، أراد أن ينسحب، فلم يستجب له، شد جسده عن المرأة، لا استجابة، ظل معلقا من أسفل، كأنما جني أمسك به من الداخل ولا يريد إفلاته.

حاول مرة، ومرة، ومرات.

وسال العرق غزيرا على الجسدين العريانين، مد يده تشد من أسفل، لا شيء يتحرك من مكانه، حاولت المرأة رفعه بذراعيها، دون فائدة، فصرخ:

- يا أخويا الحاج رضوان.

وخرج صوته في صمت الليل مستغيثا ولا مجيب.

- الحقوني يا هووووه.. الحقني يا حاج رضوان، واقتحم عليه أخوة الحجرة، وحين وقعت عيناه على المشهد، رجع بظهره ليدفع زوجته والأولاد بعيدا، ثم دخل وحيدا بعد أن أحكم غلق الباب، وأطفأ المصباح، تقدم من السرير، يشد الشيخ من الخلف، صائحا فيه:

- ساعدني يا اهبل:

فيدفع ساعديه على الجنبين، ويحاول القيام بمؤخرته، وسحب الحاج رضوان القلة الموضوعة في إناء بالقرب من السرير، ورش في موضع الالتصاق، فانقلب الشيخ على جنبه لاهثا، وتوارت المرأة تحت الغطاء باكية بحرقة.

خرج الحاج رضوان وهو يضرب الكف بالكف:

- الله يلعنك.. الله يلعنك..

وانقطع الشيخ عن الذهاب إلى غرزة (أبو عاشور).

وكان العجلاتي كلما التقاه في طريق، يسأله عن الوصفة يجيبه كذبا حتى لا يصير أحدوثة في البلد:

- مية مية.

ويضبط نفسه بالعافية حتى لا يميل على عنقه، فيضغط عليه حتى يفصل رأسه عن بدنه.

- سلام ورحمة الله وبركاته.

- على فين العزم؟

- مشوار بسيط كدا.

- ننتظرك؟

- أيوه.

هكذا كان يجيب من يسأله من أصدقاء الغرزة، وبدأ يميل إلى الوراء حتى لا يغلبه انحدار الشارع في ظلمة غير آمنة.

وإذا اقترب من عامود نور رأى الأولاد مجتمعين في دائرته، يتركون لهوهم ولعبهم ويتجهون إليه بفرح، يلتفون حوله ويمسكون أطراف قفطانه ويتشبثون بأكمامه ويسحبون شال الحرير الساقط على صدره من الجهتين.

- الشيخ سعدون.. أدينا البركة.

فيخرج زجاجة المسك الصغيرة من قاع الجيب الواسع، ويرش عليهم، يمدون أياديهم ويفتحون أكفهم فيقطر فيها السائل تقطيرا خفيفا، يرفعونه إلى وجوههم، ويمسحون به على جلابيبهم، ولا يكتفون بذلك، يلاحقونه حتى يخرج حبات السوداني فيرشها فوق رؤوسهم فيتخاطفونها بالأيدي أو ينبشون عليها في تراب الشارع.

- أدينا البركة.

فيكبش من جيبه الآخر حبات الكراملة المخلوطة بالدقيق ويرشها عليهم، فيضاعف صراخهم، ويتهافتون على الحبات المسكرة.

ويدعهم في بحثهم عن الحبات التي ابتلعها التراب إلى حلقة أخرى، عند عامود آخر.

والمشوار الذي يقطعه في ربع الساعة يقضيه في أكثر من ساعتين فهو عاجز عن التخلص من الأطفال، هو يعشقهم، وهم يبادلونه العشق، يتمسحون به، ويتنشقون ريحه التي تفوح من هندامه النظيف دوما.

إنهم – هؤلاء الأبرياء – لا يـــدرون وجهتـــه، ولا يدرون ما يدبر في رأسه من أمر.

وانتبه لهذا التناقض المفزع، علاقته النقيـــة بهـــؤلاء الأطفال وما يخطط في سره، من أجل المعلم، صديق عمره، على كل الأحوال هو لا يغضب الله، فالأخرس قـــد أخطـــأ، لاشك، ولابد من أن ينال جزاءه (الجميع يعلم خطتنا، والبلـــد كلها تؤيدنا، ولكل أسبابه، ثم إنني لن أنســـى فعلتـــه معـــي خاصة..).

(سنوات طويلة مضت، ولكن كلما تذكرت الواقعـــة اشتعلت النار في الجزء السفلي من جسدي..).

ذات عصرية صيفية لاهبة، كان الشيخ سعدون محنيا على الحصير، يثبت سماره، ويربط خيطه، في هذه الرحبة الواسعة القريبة من المحل، مؤخرته داخل ســـرواله البفتـــة مرتفعة إلى أعلى، ويميل بظهره كله على ســـاعديه اللـــذين يعملان بهمة، ورأسه داخل العمامة المزهرة غطس ما بـــين كتفيه، لا يرى غير بياض الحصير وخطوطه الطولية التـــي يضمها بشدة لتحفظ له قوته، وصموده للزمن.

وإذا قالب الطوب ينفلت من يد أحدهم، ويأخذ في طريقه المحاشم المدلاة من خلف، فينبطح الشيخ – وهو يعاني ألما شديدا – على بطنه، وقد أطلق الآهة التي ارتجت لها دور الحي، ثم بدأ يتقلب على جنبيه رافعا ساقيه إلى أعلي ممسكا ما بينهما بكفيه صائحا بوجع لا يتحمله بغل: نار الله الموقدة.. نار الله الموقدة..

بعدها لم ينطق بحرف، وسقط في غيبوبة، لم يفق منها إلا في غرفة بيضاء من غرف المستشفي، قام دائخا، لا يهمه غير معرفة رامي الحجر. قالوا له: لا يهم.. الحمد لله جات سليمة.

– مش حيرتاح لي بال إلا لما اعرفه.

– وإيه الفايدة؟

انتقم منه ومن عيلته.

– وإذا كان ربك انتقم أصلا فعقد لسانه، وهو عديم العيلة.

– الأخرس!!

– هو بعينه (تار بايت يا منجوس ولم يفلح الزمن في محوه..) هاهو يقف وراء العربة تحت نور النيون إلى جوار

أخيه، يقلب قطع الكبدة بالمقصوصة، ويملأ الشارع الكبير بصراخه: بيك.. بيك..

وطغى على الصراخ صوت جرس البلوك الذي يعلن عن قدوم قطار التاسعة، كان الشيخ قد عبر البوابة قبل انغلاقها، ومرت بين السيارات والماشية التي حجزت على الجهتين، نظر يمينا ثم شمالا ليقطع طريق الأسفلت، وصار الآن في البقعة الضاجة بأنوار فرش الفاكهة وعربة البليلة الزاهية ببياضها الناصع تتماوج من أوانيها أبخرة شهية، سال لعاب الشيخ، ولكنه لا يجد الوقت الكافي لتناول طبق بليلة بالقشطة والمكسرات، نادى عليه زبائن قهوة متولي: تفضل يا مولانا.

- بارك الله فيك.
- كرسي معسل ع الماشي.
- بطلته والله.
- يا زكي.. تسمح كلمة.

ترك زكي ما بيده، وخرج من نور النيون ليدنو من الشيخ الذي مال عليه محذرا:

- إياك يكون صعب عليك ونبهته.

- عيب يا مولانا.. دى أوامر المعلم.

- كله لمصحلتك علشان يهمد ويعلم أن الله حق.

كان حودة يتابع الحديث وهو يقلب الكبدة، ولكنه لا يدرى شيئا، لم يسمح له الظلام بالتقاط حركة الشفاه، هو يجيد قراءتها يحدق فيها فيعلم إن كان يسبه أم يردد كلاما لا علاقة به، ترك المقصوصة على حافة الصينية، ولحق بهما، سأل الشيخ بالإشارة: هل المعلم لم يزل على وعده؟

ورد عليه الشيخ بالإشارة: هو لعب عيال!! طبعا.

ومد حودة بوزة ليقبل كتف الشيخ، ويرفع يده إلى السماء صائحا:

آب..آب.. وأشار إليه: البركة فيك.. ولكن كيف سيكون الأمر وهو لا يملك حجرة مستقلة؟ ولا أثاث يصلح لتأثيث بيت جديد، ولا ملابس تليق بالعرس؟ فأشار إليه الشيخ: إن المعلم سيتكفل بكل هذا.. وأنا في سبيلي إلى تنفيذ ما أمر به.. سيكون لك بيت وأثاث.

رفع حودة يديه إلى جانبي وجهه: آب..آب... ليشكر الشيخ على مجهوده، ولكن القلق ما يزال مستقرا بقلبه وعاد

ليسأل: هل سيقام لي عرس حقيقي بغوازي وراقصات، وهل اتفقتم مع المأذون لعقد القران؟

وطلب من الشيخ أن يعذره لكثرة أسـئلته لأن البلـد كلها قد علمت بالعرس، وهو يريد التأكد من حقيقته.

فضربه الشيخ على بطنه قائلا: حط في بطنك بطيخة صيفي.. كل شيء معمول حسابه.

- آب.. آب.

ولكن.. وعاد يسأل بأستخذاء: من هـي العـروس؟ الكل يعرفها وأنا لا أعرفها.

وأشار إليه الشيخ: هذه مفاجأة، وحين تراهـا ليلـة عرسك ستشكرني كثيرا لأني - لا أحد غيـري - اخترتهـا لك، ويكفي أن تعرف أنها من أجمل بنات البلد.

وعاد إلى عمله مطمئنا، تشع بهجة وجهه على نور النيون فيضاعفه، رفع نار الموقد تحت الصينية، ورمى قطع الكبدة في الزيت الساخن، وصاح بصوت مغرد.

- بيك.. بيك..

حذر الشيخ زكي مرة أخرى، واضطر لأن يقول له مهددا:

- حتقطع عيشك.. هو أخوك بصحيح لكن ياروح ما بعدك روح. ثم دفعه نحو العربة ليكمل عمله.

- بارك الله فيك.

وانحدر مرة أخرى إلى شارع السوق الضيق، مال بظهره إلى الوراء حتى لا يستجيب للهبوط المفاجئ، وجمع أطراف قفطانه اللامع ليدفع بابا عتيقا، استجاب لدفعه بثقل، دخل بجنب واحتك كرشه بالضلفة المغلقة، صفق بيده: يا أهل الدار.

كان المدخل مظلما تماما، تحسس طريقه متلمسا الجارين القريبين حتى وقف في نور المصباح الأصفر الساقط من السقف. هنا رأى أجسادا تتحرك، وسمع همهمات غامضة، ولكن الرؤية لم تتضح بعد، وسمع صوتا أنثويا يأتيه من عمق المكان: مين؟ الشيخ سعدون!!

وصاح الجمع من حوله: أهلا يا مولانا.

- أزيك يا فرحة.

- زى ما أنت شايف.. بحطة إيدك..

وطرقت أنفه رائحة البوظة المعتقة.

مسحت فرحة يدها بخرقه قديمة، وأقبلت عليه فاردة ذراعيها، ودخل الشيخ بينهما ليرفعها عن القــش المفــروش على الأرض، حدق في عينهــا الحيــة، وتجاهــل العــين الزجاجية المحملقة بثبات، قبل صدغيها، ومرر شعر لحيتــه على طرف أنفها.

- لسة حلوة يا بت.

- وأنت اللهم صلي ع النبي بعفيتك.

- كان زمان وجبر.

ظل رافعا البدن النحيل على هضــبة كرشــه حتــى انتبهت إليه الكائنات الشبحية المنتشرة فوق القــش، فقامــت مترنحة مستندة على بعضها البعض لتهلل وتصفق وتصــفر بأفواهها المعوجة.

- هيصة.

- إشمعنى الشيخ؟؟ ما أحنا معاكي كل يوم.

- حبيب القلب.

- اقعد يا نتن منك له.

جذبوا الشيخ من ذيل القفطان: أقعد معانا

- حاضر.

- سيبك منهم وتعال.

وسحبته فرحة من يده نحو الطاولة التي اصطفت عليها الأكواز الفارغة، دخلت إلى ظلمة النصبة لتحضر كرسيا من الخوص المجدول، لا ظهر له ولا مسند، فرد عليه الشيخ مؤخرته المهولة، بعد أن لملم أطراف هندامه.

ونزحت له فرحة من البراميل كوزا كبيرا، وضعته فوق المشمع السميك، ثم فردت ورقه الجريدة، حيث مددت عليها مشطين من السمك المشوي وعيدان البصل الأخضر.

- بالهنا والشفا.

- متغيرش منهم واحدا.

وأشار إلى زبائنها الذين اندمجوا في حوار صاخب، كان بينهم فاروق الحداد، وفارس نجار السواقي، وعبده الحلاق، وأبو نعمة الخياط البلدى، أصحاب حرف أخني عليها الدهر، لم يعد أحد بحاجة إلى عملهم، ولكنهم يصرون على فتح المحلات العتيقة، يصحون من النجمة ليدخلوا شارع السوق يرفعون الخوص الحديد عن الأبواب، ويقتعدون الدكك الخشبية المرقعة بمسامير غليظة.

لا يشعل فاروق نارا، ولا ينفخ كيرا، يظل منتظــرا أحد رجال القرى المجاورة ليسن مــنجلا، أو يطلــب رأس فأس، أو عامل الطاحونة الوحيدة في البلد ليسن له الشواكيش التي يؤكد بها مجرى الحجر الصوان.

أما فارس فقد انقرضت مهنته تماما، بعــد انتشــار ماكينات الري، يكتفي بأن يدعوه أحدهم ليرفع الهياكل القديمة للسواقي، وكان منشاره يوما لا يكف عن قطع أسنان التروس للكبير والصغير، ربما عن لأحدهم أن يصنع طبلية من باب الوجاهة فيصنعها له مضطرا، وهي لم تكن يوما من أعماله الكبيرة.

وعبده الذي كان يرفع حقيبته الجلدية يمر بها علــى الفلاحين في الحقول، وعلى الأعيان في بيوتهم ليحصل فــي نهاية الموسم على نصيبه من نبات الأرض، أهمله الجميع، وعرفوا طريق الصالونات الجديدة التي تخــدعهم بمراياهــا الملطوعة على كل جدار، ثم إن الأولاد الرقعــاء يطلبــون حلقات لا يجيدها، وصار هزءا لهم يسخرون مــن حرفتــه، وشكله التقليدي الذي عفي عليه الزمن.

هذا أيضًا ما وقع لـ (أبو نعمة) فقد طاحت بحرفته الملابس الجاهزة، لا أحد اليوم يبحث عن الكشمير، ولا عن قطعة الصوف الإنجليزي، ولا أحد اليوم يحتفي بتفصيل عباءة من الجوخ، ولا صديري بأزرار مصفوفة وواجهة حريرية لامعة، انتشرت الشركات، ومحلات الملابس المستوردة، وهل ينتظر كل موسم أن يأتيه أحدهم بقطعة قماش جاءته هدية من أحد العائدين من دول النفط، ويطلب أشكالا ما أنزل الله بها من سلطان؟

يقضون النهار في الجلوس أمام المحلات حتى إذا أذن لصلاة المغرب يعودون إلى بيوتهم، برزقهم الشحيح، ثم يتواعدون على اللقاء، في بوظة فرحة.

يجتمعون في حلقة، يسبون الزمن الغادر، ويتذكرون أيام مجدهم الغابر، يلقون النظرات الشزراء على كل غريب، مصرين على ألا يلحقوا بحلقتهم فردا آخر، خارج جماعتهم، اكتفوا بأنفسهم، وصار المكان الليلي هو متنفسهم الوحيد، والملتقى الحميم الذي لا يعوضه مكان.

– عدهم كدا.

– واحدا اتنين تلاتة أربعة.. فين الخامس؟

- تعيش أنت.

- إزاى!

وقصت عليه فرحة حكاية عز الدين مشعل الفوانيس، أو عفريت الليل كما يذكرونه فيما بينهم.

قضى معهم السهرة كالمعتاد، وحين أزف الرحيل خرجوا جماعة. على أول الشارع وقفوا ليودعوا بعضهم البعض حيث يتفرقون في الشوارع، كل إلى بيته، ولكن – في هذه الليلة – قال لهم فاروق:

- الليلة صيف، والجو جميل، نتمشى شوية.

واستجابوا له بسهولة:

- حنروح نعمل إيه؟

وتماسكوا فيما بينهم، وقطعوا شريط السكة الحديد متخذين طريقهم نحو الزراعية، قال فارس:

- نتمشي ع البحر، القمر مالي السما بالنور، والهوا يرد الروح.

وتساندوا مرة أخرى حتى قطعوا الشارع إلى آخره.

وهناك وقفوا فوق الكوبري الحديد يطلون على الماء المنساب بين روافعه.

وقال عز الدين:

- مين يراهني على العوم للجهة التانية؟

قالوا في نفس واحد:

- نراهنك.. على كام.؟

- جنيه.

- ماشي.

رفعوه إلى سور الكوبري، وقف مترنحا لبعض الوقت حتى فرد الذراعين عن آخرهما، وملأ الهواء فراغ جلبابه من الداخل.

- واحد... اتنين.. تلاته.. هب

ورمى جسده في الماء، ذهبوا إلى الجهة الأخرى ليكونوا بانتظاره، مكثوا ساعة وساعتين يحدقون في الماء، ولم يخرج عليهم أبدا حتى أشرق عليهم نور الفجر، وتبخرت البوظة من رؤوسهم، فبدأوا يهيلون التراب على وجوههم وينهنهون في بكاء مرير.

أما عز الدين المسكين فقد أخرجوه بعد ثلاثة أيام، طفت جثته هائمة على وجهها عند قنطرة تبعد عن البلد عشرين كيلو متر.

- الله يرحمه.. أمال حمادة ابنك فين؟

- غريبة!! أول مرة تسأل عليه.

- عايزه في موضوع.

- ناوي على الجواز؟

- وكوم اللحم اللي في الدار.

- البركة في عمهم.

- عايزه في جوازة تانية.

- خير.. مين؟

- الواد حودة.

- الأخرس!! وأنت دخلك إيه؟

- المعلم عثمان كلفني بالموضوع.

- شوية ويطب علينا.. المهم كنت فين المرة دي؟

- بلاد الله واسعة.

وقام أبو نعمة من بين الأشباح متجها إلـــى الشـــيخ، أمسكه من ذراعه، وجذبه نحوه:

- ما تقعد معانا شوية.

رفع الشيخ الكوز إلى فمه، وتجرعه مرة واحدة، أراد أن يميل بظهره رافعا ساقيه في الهواء فتذكر أن الكرسي بلا ظهر.

- حي.. يا جمال النبي.

- ما سألتش عن أصحابنا الغايبين.

- لسه عارف من فرحة، البقية في حياتكم في عـز الدين، وسأله عبده.

- وما عرفتش اللي حصل لكاكا.

- آ.. صحيح.. كنتم ستة.

قام الشيخ جامعا القفطان بين يديه، ادخل المسبحة في جيبه، وجلس بينهم ساندا ظهره إلى الحائط، وكان نور اللمبة الشاحب يتراقص أمام عينيه، يعلو ويهبط، ويدور دورة كاملة في سقف المكان، ومرة يناوره فتتقلب ألوان متعددة، خضراء وحمراء وزرقاء، ومرة يراه يتطوح بين الجدارين، كأن يـدا مجنونة أمسكت بالسلك وهزته بعنف.

- إيه اللي حصل لكاكا؟

- وتولى عبده الحلاق – كشاهد عيان – إعادة الحكاية كما قصها على أهل البلد – وكما قصها في محضر الشرطة، بدقة بارعة، وتفصيل ممل.

واختار أن يبدأ بالنهاية.

- ربنا يلطف به.. أهو في المستشفى فيه روح وفينا روح.

- المستشفى!

- عنده غرغرينة في رجليه.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

كاكا الفخراني، زهد الحياة فجأة، واعتزل جلسة الأصدقاء. الفاخورة منطفأة أبدا لم يعد تشعل لها نار، من جهة صنعة الفخراني صارت عملة نادرة، ومن جهة الحكومة تحاربها لأنها تسبب (تلوث البيئة) على حد قولهم، رغم أنها تقوم في أطراف البلد فضلا عن ذلك فإن الزبون قد سعى إلى أدوات البلاستيك، ولم يعد بحاجة إلى القلة والإبريق، واستغنى عن المترد والبربخ والزير، فقد صارت جميعها أعجوبة من الأعاجيب، لا ضرورة لها.

أطلق كاكا لحيته، وأقام في جامع السوق لا يفارقه.. ثم عن له فجأة– وكأنما هبط عليه وحي مـــن الســـماء – أن يهدم الفاخورة، ويحطم بقايا بضاعته.

حجز من مساحة الأرض قطعه صغيرة، ضرب لها قوالب الطوب بنفسه، واستدعى البنـــائين ليقيمـــوا (زاويـــة) صغيرة يتعبد فيها وحده، بعد الانتهاء من البناء.

وقف في الناس، وخطب فيهم قائلا: الآن ستشـــهدون المعجزة، كان قد جمع كمية كبيرة من حطب القطـــن، رش عليه قطرات الكيروسين ووقف وســـطها، وهتـــف بـــأعلى صوته: الحاضر يعلم الغائب أن نبي الله كاكا لن تمسسه النار بسوء.

وأخرج عود ثقاب من جيبه، فأشعله، ثم ألقى به في الحطب.

رفع يديه إلى السماء يمسح على لحيته الكثة، ويجفف دموعا هطلت بغزارة على خديه، ثم قال وهو يرتج: يا نار كوني بردا وسلاما على كاكا.

فأمسكت النار بذيل جلبابه، ثم سحبت إلى ســـرواله، حاول ألا يصرخ، أو يستغيث، ولكن الناس هجمـــت عليـــه،

ورفعته عنوة، واستدعوا له الإسعاف، ظل يتملص منهم رافضا الركوب على النقالة، ويصرخ في وجوههم: لماذا حرمتموني من المعجزة.. يا كفرة..

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وضرب الشيخ كفا بكف.

- الكافر عايز يقلد أبو الأنبياء.

- ما تقلش كافر.

- وما تقلش يقلد.

- ربك أعلم بأسراره.

- محمد خاتم النبيين.. ولا نسيتم؟

- ما أنسناش.. دى كرامة، بعدين ما تحطش نفسك فوق رءوسنا وتفتي فيها... هي ناقصة.

- حالك من حالنا.. والا أنت مش حصرى راحت عليه راخر؟

- الحصير البلاستك قضى عليكم.

ونادت عليه فرحة من وراء الطاولة.

- تعال هنا يا شيخ وسيبهم في حالهم.

فقام إليها الشيخ نافضا قفطانه من القش الذي تشبث به. أمسك به فارس ليمنعه من الذهاب، وليقول له بسخرية:

- ما سمعتش عن الموكيت؟

- البركة في المساجد مش حتستغنى عن الحصر.

- فرشوها موكيت يا مولانا.

- ما سمعتش عن حمارة الدهشان بقى.

وذكرهم الشيخ بالحكاية.

كان الدهشان قد أجاع حمارته النحيلة عقابا لها لإطاحتها إياه بحمل البرسيم عند عودته من الحقل مساء، قضت الحمارة يومين دون طعام تنظر إلى الجاموسة والبقرة متحسرة، فقد ألقى إليهما الدهشان بكومة البرسيم كاملة، ويذهب بهما إلى الحقل تاركا الحمارة في مربطها حتى ضافت بنفسها، وتمكنت من قطع الرتعة التي تقيد ساقيها، وخرجت من الزريبة إلى الشارع، تشمشم بمنخاريها في الزبالة، تلتقط قحف الكرنب، أو عرق الخس، أو قشر البرتقالة إلى أن وقفت أمام الجامع، فرأت الباب مفتوحا على آخره، وكان الوقت بين المغرب والعشاء، ولا أحد هناك، الجامع فارغ من المصلين تماما، ضربت بعينها فرأت

الموكيت الأخضر الجديد يمتد حقلا من البرسيم الريان من المدخل حتى المحراب، فعبرت الحاجز الخشبي إليه، وقضمت منه حتى شبعت، لم يزجرها أحد، قضت المدة بين الصلاتين تأكل بنهم حتى قدوم المؤذن ليرفع أذان العشاء فوجدها قد أتت على نصفه، وبدلا من أن يرفع الأذان، وقف على الباب صائحا.

- يا أهل الحي.. حمارة الدهشان كلت الموكيت.

وقف الشيخ أمام الطاولة، فوجد فرحه قد ملأت له الكوز مرة أخرى، رفعه إلى فمه، ودلقة مرة واحدة: حي.. يا جمال النبي.. كاد يسقط على وجهه، فأسرعت لتسنده من الخلف.

- أجمد أمال.. أقعد دوق المزة.

- عندي مشاوير مهمة.. وخايف من ريحة السمك والبصل.

- رايح لمرة؟

- كان زمان.. الواحد يدوب صالب حيله.

- الدهن في العتاقي.

- كلام بنقوله نصبر به نفسنا.

- الباشا وصل.

- عن إذنك حاخده على جنب.

مد حمادة يدة للشيخ: مساء الخير يا شيخ.

- مساء الورد.

وأفلت الشيخ يده من الكف المبلولة ليأخذه في حضنه طويلا، يطبطب على ظهره، ويتحسس بضاضته على الكتفين، والزندين، والوسط..

- صلاة النبي أحسن.

وقال في سره: سبحان الله له في خلقه شئون، الجسد جسد مرة، والحس حس مرة، مين بس حسبه ع الرجالة!!

- عايزك في كلمتين

- خير!!

وجره من يده نحو المدخل، تأمل وجهه تحت المصباح الذي انسحب شحوبه عن بشرة الولد لغلبة بياضه، فأشع، وأضاء، وأضفى على صفرته نورا ناصعا.

الحواجب مزججة، والشفاه مدهونة بروج خفيف، والكريم منح الخدين ليونة وضاءة.

والصدر المكشوف خال من الشـــعر، تتـــدلي علـــى اكتنازة لحمه سلسلة ذهبية رقيقة، والقميص المشجر بـــألوان فاقعة، ضيق عند الخصر، ومشمور الأكمام، كذلك السروال ذو الحزام العريض يضيق على المؤخرة المستديرة، ويبرز نتوءا أماميا محكم بسوسته متينة، ثم يتســـع عنـــد القـــدمين ليفترش الأرض، رغم الكعب العالي للنعل.

حمادة يهتم بزينته منذ الصغر، لا يفارق المرآة حين يكون وحيدا في البيت، يغسل الشعر الطويل الناعم، ويجففـــه بالسشوار، ويمكث النهار بطوله يلتقط الشـــعيرات الخفيفـــة البارزة في الوجه، ولا يترك فرصة لنمو الشارب أبدا.

لديه صبر على معالجة جسده، والاهتمام بنظافتـــه، يصنع السكر المخلـــوط بـــالليمون ليزيـــل شـــعر الســـاقين والذراعين والصدر.

والملقاط أحد أدواته الأساسية لا يفارق جيبة، حـــين تراه مشغولا بأمر أو حين ينتابه القلق لسبب مـــن الأســـباب يرفعه بين الإبهام والسبابة، ويجذب الشعيرات الدقيقه بتوتر.

لا تهتم أمه بعالمه الخاص، هـــي طلبتـــه مـــن الله، فاستجاب لها، أن يكون ولدا أو بنتا لا يهـــم، عاشـــت مـــع

زوجها الراحل عشر سنوات، دفنت الكثير من أبنائها المبتسرين في مقابر الصدقة، كما أسقطت عددا آخر، دفنته في جحور البيت، مات عنها زوجها وحمادة عنقود دموي يتكاثر في أحشائها.

حين خرج إلى الدنيا تلقفته جدته التي كانت تدير البوظة منذ عهد بعيد، وقالت: سنبيعه لولي من أولياء الله الصالحين حتى يرعاه بمعرفته، واستجابت فرحه لكل وصفة تسمعها من نسوة الحي: لابد وأن تطعمي بعضا من برازه، لا مانع، وغمست لقمتها دون تردد.

- اشربي حليب الآتان.

لا مانع، وحلبوا لها حمارة الجيران، وتجرعته دون أن تبدى شيئا من التقزز.

وكان صعبا جدا عليها أن تحلب كلبة، ولكن الجدة أمسكتها من بوزها ومالت فرحة على أثدائها العامرة، وشدتهم الواحد بعد الآخر لتقطر من حليبها في فمها.

وعاش الولد، وترعرع بين الأم والجدة. الحلقة في أذنه، وملابس البنات على بدنه، فلا تصيبه العين الحاسدة، واضطرت فرحة إلى العمل في البوظة بعد رحيل الأم.

كانت تترك وحيدها في البيت، فأجاد العمل به، كأي أنثى بارعة، يكنس، ويطبخ، ويبدل الفرش، ويغسل، كل هذا رحمة بأمه التي تقضي ليلها في البوظة ونهارها في النوم، أو في الإعداد لبوظة المساء.

وكان قبل رحيل الجدة قد تعلق بعالم الغوازي اللائي يهبطن البلد في المولد، وكن يقمن بعض لياليهن في بوظة الجدة، استجاب جسده لإيقاع الطبل والرق، وترقق صوته العذب، وردد أغانيهن، وتمثل حركاتهن وإيماءتهن.

بعد فترة، لم تعد تكفيه مدة المولد، فسعى معهن في رحلاتهن ما بين المنصورة والسنبلاوين وميت غمر وطنطا وبنها البعيدة.

يمر الأسبوع فلا تراه أمه، ثم بدأت المدة تطول أكثر، فيغيب بالشهر، قالت له أمه:

- اعمل لنفسك فرقة واشتغل معي.

فقال لها ساخطا:

- بلد بوز فقر.. لازم أوسع دايرة الشغل.

وكانت تفتح حقائبه فيدهشها وجود ملابس أنثوية خليعة، ذات ألوان صارخة (ماذا يفعل الولد بملابس داخلية

حريمي؟ وملابس مفتوحة الساقين تبدى مساحات واسعة من الظهر والكتفين)؟

هل تصدق ما تردده الألسنه؟ لم لا.. فالولـد يتشـبه بالنساء في كل شيء، في زينة جسده، وفي رفضه لمجتمـع الرجال. إنه لا يطيق مجالسة الرجال هنا، ومما أكـد لهـا الإشاعات عثورها على أدوات زينة في علـب مزخرفـة، والولد تندب في عينه رصاصة، لا يهمه أحـد، ولا يحفـل بحديث الناس، وأسلمت أمرها لله، يكفي وجوده معها، ونسها الوحيد في هذه الدنيا.

- بص يا سيدى عايزينك في شغلانة يوم الخميس.
- بس أنا محجوز الخميس.
- دفعوا لك؟
- أخدت عربون.
- أرمي لهم العربون.. حنديك بدله عشرة.
- فرح؟
- بالعربي...لأ.
- أنا ما بعملش غير أفراح.
- شوية تمثيل.

- تمثيل؟؟ أنا عمري ما مثلت.

- المرة دى عايزينك تمثل.

ويشرح له الشيخ وأفاض في الشرح، وكان حمادة كلما أبدى اعتراضا يتركه الشيخ حتى يكمل حديثه ثم ينبري لدحض فكرته، وفي النهاية أقنعه تماما، وأنهى الولد حديثه بالسؤال عن العريس.

- حودة الأخرس.

- الخرس دول شرسين ويمكن يعمل في حاجة.

- الكل حيكون حواليك.. وكل حاجة معمول حسابها.

-ماشي... حتدفعوا كام؟

- اللي تقول عليه... المعلم عثمان متكفل بالموضوع من طقطق لسلام عليكم.

- عايزين ميتين تحت الحساب، الكوافير، والهدوم، وخلافه.

- الصبح يكونوا عندك... سلام عليكم.

رفعت الأشباح أياد مهزوزة دون أن يخرج منها صوت واضح، ثم انكفأوا على بعضهم ليجددوا حديثهم الحميم المنبت الصلة بدنيا الحاضر.

وقدمت فرحة من خلف الطاولة تمسح كفها على جانبي الجلباب.

- بدري
- يا دوب
- ومد إليها يده بالحساب.
- عيب يا شيخ حسابك وصل.
- كتر خيرك يا أم حمادة.
- الحساب عندي يا أمه.
- الظاهر اتفق معاك على فرح سُقع.
- يعني.
- تعيش يا اخويا وتملا الدنيا أفراح.

وشكر الشيخ حمادة على الموافقة، كما شكره على دفع الحساب، ورفع لهما يده بالتحية، وجمع قفطانه على كرشه، بعد أن أخرج المسبحة الطويلة، وأطلقها بين أصابعه، وخرج من الباب إلى عتمة الشارع.

- ٦ -

عند الكوبري، فكر في أن يرسل ولدا من سائقي الموتوسيكلات ليبتاع حشيشته من (الكفور) ولكنه تراجع، إنه يأتي عليها بلا رحمة، يقاسم الزبون بضاعته، يقضم بأسنانه الثمن أو الربع ويعيد لفها في ورقة السوليفان ببراعة.

إنهم يصطفون هكذا ليلا، ونهارا، بالقرب من بوابة السكة الحديد، ينتظرون القطارات والسيارات حيث يصحبون أهل القرى المجاورة، خلف ظهورهم، يرتدون السويترات الجلدية ويضعون على رءوسهم الخوذات الحديدية، ويرفعون على وجوههم نظارات قاتمة رخيصة.

حين مرق أمامهم، تقدم أحدهم إليه:

- مساء الورد يا شيخ.. أى خدمة؟

- متشكر يا بني.

- الكفور نزلها بضاعة الأسبوع ده ميه ميه.. لسه جايب للحاج دسوقي الفسخاني حته إنما كدا.

ورفع إبهامه في وجه الشيخ.

- شكرا يا أخويا... مستورة الحمد لله.

قطع قضبان الحديد المغروسة بين حجارة البازلــت السوداء، واتخذ طريقه هابطا إلى الجهة المعاكسة، يسير في ظلمة يبددها من حين لآخر نور مصباح تائه، هنا أو هناك.

(أعوذ بالله عواميد المجلس كلها محروقــة!!) ظــل يتعثر في الحفر، ويدوس بقع الماء حتى خرج أخيرا إلى نور مقهى (الظيظي) وقف على جنب حتى استطاع أن يشير إلى زوجته الواقفة على النصبة (يا ســاتر.. نفــس الوشــوش) وأحس بالملل يمسك بخناقه.

للبلد إيقاع ثابت، كل بلاد الدنيا.. قابلة للتغيير، مــا عداها، لكل مقهى زبائنه، إذا أردت شخصا بعينه فإنك لــن تجهد في العثور عليه، اذهب يا ولد إلى قهوة فلان ســتجده هناك ويأتي في الحال.

خرجت (الظيظية) تجفف كفيها في جانبي الجلبــاب (وشك ولا القمر.. يا دى النور.. تفضل).

- معلش عندى مشوار.. أمال إسماعيل فين؟

- آ.. ما أنت غايب عن البلد.. ربنا يفك حبسه.

- تاني!

- طول ما ورانا المدعوق ده حيبطل.

- رزقه واسع يا وليه.

- وكوم اللحم اللي سايبهولي.. أروح بيه فين؟ واد يا عمور.

وخرج من دفء المقهى طفل صغير مشلوح من الخلف، زحف بيديه ورجليه ليتسلق العتبة حيث صعد إلى الشارع بوجهه الملوث وجلبابه الممزع من كل جانب، ضرب الشيخ يده في جيب القفطان، ومدها إلى الطفل: خد يا حبيبي. فزام الولد، وتشبث بجلباب أمه مخفيا وجهه ومصدرا ساقه نحو الشيخ.

- خد من الشيخ يا وله.. فلوسه بركة.

فنتش الولد البريزة خطفا، وعاد ليختفي في جلباب أمه.

- هو ده بسلامته؟

- هو...فاكر؟

كان يجلس مع عمور صبي المعلم عثمان، وهي قبعت أمامهما بالجوزة بين يديها، ترفع الحجر من الطقم الخشبي، وتلقي بالمحروق في صفيحة السمن النباتي القديمة، وكان كرشها ممددا أمامها على آخره، إنها لم تتوجع، ولم

تشك ألما، تعمل بنشاط وهمة ما بين النصبة والخدمة على الزبون.

كان زوجها في حبسة كهذه.

ولما رفع الشيخ الغابة إلى فمه، طقطق الحجر، واشتدت النار في المعسل أراد أن يلقي ظهره إلى الوراء منتشيا بالمخدر.

- يا جمال الحبيب النبي.

ثم عاد لينحني إلى الأمام فرأى قطعة اللحم ساقطة بين فخذيها، قال عمور وهو يغادر انتباهته الأخيرة ليدخل في ضباب السطل فيأخذ عليه عقله، لا يفرق بين الواقع والخيال.

- شيلي الواد من الأرض.

ورد عليه الشيخ وهو يتراقص على مقعده.

- إدي الواد لأبوه.

فانتبهت (الظيظية) لما حدث، رفعت جلبابها حتى لا يلوثه الدم، ورفعت الوليد بين يديها، واختفت به وراء النصبة، أيقظ عمور بناتها الكبار النائمات في ركن من المقهى ليستلمن عمل الأم.

- وما سمتوهوش على اسمي ليه؟ ما أنا كنت قاعد معاه.

- إحنا غلابة وبنسمي على أسامي الغلابة.

- ليكون ابنه يا بت؟

- فشر.. دا أنا ما حدش يدوس لي على طرف.. راجل ينام مع راجل؟!!

- إسماعيل مرات يطول في السجن.

- إن شا الله العمر كله، توكل يا مولانا، الظاهر حتلخبط في الكلام وأنا مش فضيالك.. عاوز تقعد أهلا وسهلا.. مش عاوز... زق عجلك، دا مكان رزق.

- سيبتك بعافية..

- اشتري من النسناس، قاعد في داره عند الكنيسة.

- أنا رايح له.

غادر النور الشحيح إلى الظلمة، هدأ من سيره، ودنا من جدران البيوت ليستند عليها عند الحاجة، انبثق نور مقهى سماره بعد فترة وجيزة، سطوعه المبهر أغشى بصره وجعل من الجالسين على الصفين أشباحا، يرى كتلتها ولا يتبين ملامحها، وأخذ لهتافهم على الجانبين.

- تفضل.

- تفضل يامولانا.. كرسي معسل ع الماشي.

ورفع ذراعيه ليحي الجهتين، فسقط الجلباب والقفطان معا، فاضطر إلى رفعهما بيد، ويحي بالأخرى، بعدها سحب كفه ليسد بأصابعه طاقتي الأنف، لم يطق رائحة الثوم الذي يقليه ابن سمارة مع قطع الكبدة المسودة في غطاء الحلة المقلوب على قائم من الصفيح يختفي بداخله، وابور يطلق من الهباب أكثر مما يعطي من النار.

انعطف بجسده الممتلئ جهة اليسار، فاستقبل باب الكنيسة المغلق، كان ينبعث من داخلها نور لمصابيح تختفي وراء أشجار العبل والكافور السامقة، ونور آخر يتوهج في برج الجرس الذي يرتفع كثيرا عن البيوت التي تميل نحوه، ولا تترك لمنافذها غير شوارع ضيقة لا تتسع لغير إنسان واحد..

دخل الشارع من جهة اليمين، واحتوته ظلمة أخرى.. جعل كفه اليسرى على سور الكنيسة الحجري، خشية السقوط في مداخل الأبواب التي تبدو كحفر واسعة، تسحب الداخل إليها عنوة.

بعد مروره على أبواب ثلاثة، تقدم من النافذة التي ينحبس بين فرجاتها النور والدخان، وطرق بظهر السبابة، فلم يرد عليه أحد، فتنحنح، وصاح بصوت عال:

- يا نسناس.

لم يستجب أحد لندائه، قرب فمه من فرجة النافذة ونده بصوت خفيض:

- أنا الشيخ سعدون

وانفتحت إحدى الضلفتين بحذر، وأطل رأس النسناس، حدق في الوجه طويلا، وتأمل البدن كله من العمامة إلى النعل، وقال بهدوء، ودون حماس:

- أهلا يا شيخ.

- نايم؟

- مريح شوية.

- خد.

وألقى إليه بالمال كما قدره في المرات السابقة.

- عايز اتأمل في جمالك.

- دول ما ينفعوش.. الظاهر ما شربتوش من زمان.

- كل يوم باتنيل.

- هات قد دول كمان.
- دي للمعلم عثمان.
- ما هو عارف السعر.. كل سنة وانت طيب الصنف حينقرض خلاص.
- لا اللي بيزرعه يستغنى عنه، ولا اللي بيبيعه حيسلاه، ولا اللي بيشربه حيتوب عنه.
- حيوسع لصنف تاني رخيص.
- بلاش فلسفة ارمي الحجرين خليني امشي.
- هات كمان بريزة.
- جات على بريزة يا معفن.
- بريزة يعني عشرة جنيه.
- الله أكبر.. خد بالسم والدم.
- وأنت خسران حاجه.. ما كله بحسابه.
- ليه عايش عواله على الناس؟.
- أنت حتقولى... الله يسهلك طريقك.
- إياك يكون مضروب.
- الله وكيلك عمرك شربت حجر مضروب من عندي؟
- الحقيقة لأ.. بس فين سنة الآفيون.. علشان أدعيلك.

- ومد النسناس يده بورقة في حجم الحمصة إلـــى الشــيخ، فدسها تحت لسانه على عجل، واتخذ طريقه نحو دار (أبــو عاشور)..

ينتهي الشارعان الضيقان اللذان يحوطان بالكنيسة إلى شارع واحد، متسع قليلا، يصب في ساحة يتوسطها مقام (أبو زينة) حين دنا منه الشيخ سعدون رفع يمناه الممســكة بالمســبحة، واستند بها على إطار النافذة، وأمال رأسه بخشــوع يطـــالع الضريح المكسو بالحرير الأخضر، ينهال النور عليـــه مـــن مصدر خفي، فيمحو الظلال جميعا، ويبقى الرأس الضـــخم، المعمم بشال أبيض، زخرفت حوافه، وتناثرت على الجهتين، تضوي، وتلمع، في دائرة الضوء القوي حتى بانت الحروف السوداء الدقيقة المكتوبة على أنحاء الضريح.

ردد الشيخ الفاتحة في سره، ثم مسح وجهه بكفيـــه، وأفاق من سحبة الروح التي تأخذه كلما وقع على مقام لولي من أولياء الله الصالحين. عاد بظهره إلى الوراء، وسد طاقتي أنفه بإصبعه (الله يلعنك بلد) بحث عن أحـــد مـــن جيـــران الضريح ليلومه، فوجد الأبواب والنوافـــذ مغلقـــه، والســـاحة ساكنة تماما.

كيف يسمحون لأولادهم بالتبرز تحت جدار المقـــام هكذا؟ بل كيف يسمحون لنسائهم بدلق الماء القـــذر، وبقايـــا الخضر؟ اكتفوا بالعيش في كنفه، ولشدة سماحته لم يأخذ أحدا بفعلته، وهو القدير.

كم أهمل المقام، وصاحب المقام.

كان من حقه أن يضم في مسجد فخيم، ولكن هـــؤلاء البؤساء تركوه مجرد قبة كبيرة، تقام على أربعـــة جـــدران، غطس نصف ارتفاعها في الأرض، وصارت حافة النافـــذة مساوية للشارع، ينبغي أن ننظر إليه عاليا، ولا نميل عليـــه فننظره إلى أسفل.

جمع أطراف القفطان في قبضته، وغادر المكان بعد انطفاء لحظة التجلي التي تقبض على القلب، مســـح دمـــوع عينيه بمنديل كبير تجمع كخرقة في جيبه.

وسمع فجأة الهتاف يتردد كصدى في ساحة المكان: ياسعدون . فتلفت حوله، لم تقع عيناه على أحد، وثبت نظره في كثافة الضوء الأبيض الذي يشع على خضرة الضـــريح، فهيئ له أن الهتاف قادم من وراء النافذة.

– يا سعدون.

ورمش بعينه غير أن شدة الضوء أغشـت الرؤيـة. وقف طويلا عله يتعرف على داعي الهتاف، لم يتكرر مرة أخرى . فانحرف يمينا ليدخل الشارع الجانبي.

هاهنا تتسع الشوارع وتنتظم، ففي هذه البقعة حـدود البلدة القديمة، وتبدأ الحدود الجديدة التي أنشئت على الأرض الزراعية بعد أن رحل عنها فلاحوها، وباعها المالك كقطـع صغيرة، كل قطعة تتسع لبيت.

دار "أبو عاشور" آخر الدور التي تعطـي ظهرهـا للقديم وتطل بواجهتها على الجديد، كانت في يوم قريب، تقع على الأطراف تفتح بابها ونوافذها على الغيطـان، تتلقـى نسائم الليل الرقيقة، وتسمح لنـور القمـر بـالمكوث حتـى الساعات الأولى من النهار.

سمع الشيخ أصوات الرجال خلف النافـذة المفتـوح نصفها الأعلى يختلط بصوت المرتل الرتيب الذي ينطلق من مذياع صاحب المكان، يجعله تحت يديه، ولا يغير المؤشـر عن إذاعة القرآن الكريم، يتركه لرتابته حتى ينتبـه، فيأخـذ آخر الآيات، ويسأل الجالسين تفسير الكلمـات، فيعجـزون، فينبري (أبو عاشور) للتفسير، يعود بظهـره إلـى الـوراء،

ويستند على الحائط، ينشق من أنفه، ويمسح يده على اللحيـــة الساقطة على صدره، ويهز رأسه المعمم الشـــاحب ويغلـــق أجفانه على عينيه المكحلتين ليقول بنشوة:

- اسمع يا سيدى.

ويمنح من علمه اللدني..

طرق الشيخ سعدون على الضلفة المغلقة، فتعـــرف على صوت القنصل يصيح : أيوه، وقام ليفتح لـــه البـــاب بحذر.

ألقى الشيخ السلام على الرجال، وخلع نعليه ليدوس الحصير المفروش على أرض الغرفة، لمح المعلم عثمـــان جالسا تحت النافذة، فدس جسده الضخم بالقرب منـــه، ســـأله المعلم:

- خير؟

- طلع لك عفريت والا إيه؟

- يا أخي قل حمد الله بالسلامة.

ووجه حديثه إلى (أبو عاشور) المشـــغول بتنظيـــف الحجارة، وتكريسها، في الطواقم الخشبية المصفوفة أمامـــه.

كان وجهه يختفي خلف بخار البراد الكبيـــر المـــدفوس فـــي الرمل الساخن لرمالة لا ينقطع وابورها عن الوشيش.

- لما تتعلم تلقي تحية الإسلام.

واستشهد الشيخ بالرجال.

- قلت السلام عليكم والا لأ؟؟

فأكد الجميع أنه ألقى السلام قبل أن يخلع نعليه.

- قولوا للرجل الضلالي.

- ضلالي مرة واحدة، أنت ناوي ع الهجــوم مــن الأول.

- سيبني آخد نفسي.

- خد أنفاسك الأول.

ومد القنصل القابع أمام المعلم عثمان الغابــة جهــة الشيخ ، بعد أن أزاحها المعلم فقــبض عليهــا الشــيخ وراح يطقطق والجذوات الصغيرة تتقافز على الحجــر، وتتنــاثر على الحصير.

يلاحقها القنصل بالماشة حتــى لا تحــرق المزيــد، فالحصير القديم امتلأ بــالبقع الســوداء المحروقــة، كــذلك الكلسون القطني الذي يخنق ساقيه النحيلتين، يســتند بزنــده

على واحدة بينما أنام الأخرى تحته، ليوسع للطقم الخشبي والمصفاة المصهللة بالفحم المتقد.

- مساء العسل يا مولانا.

ودلق الحجر المحروق في الصفيحة، ورفع حجرا جديدا معمرا. حبكه في قلب الجوزة، وهز المصفاة أمامه بحرفيه ليزكي نارها، ونفخ عنها التراب الخفيف، ثم أمالها على الحجر، وهو يسوى الجذوات القوية بأصابعه الجافة، أراد أن يمد الغابة إلى المعلم عثمان، غير أنه أزاحها مرة أخرى نحو الشيخ.

- عمر راس الشيخ الأول، خلي القعدة تحلو .

وانبرى إليه (أبو عاشور) بعد أن التقط آية من المرتل الذي يتردد في المذياع.

- فسر دى يا شيخ ، قالت: يا أيتها النمل ادخلوا مساكنكم لحسن سليمان يدهوسكم برجليه.

- يا جاهل اقرا الآية صح: (قالت نملة يأيها لنمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون).

- أنا فاهم برضك، يعني النملة الصغيرة ماشية في حال سبيلها هي ورفقاتها، قام شافت سيدنا سليمان جاى بجيشه، فقالت لهم خلوا بالكم ابعدوا عن طريقه ليدهوسكم برجليه، وربنا كرم سيدنا سليمان بالقدرة على الكلام للطير والحيوان وحتى النمل.

- الله.. الله ينور عليك.

صاح الرجال وهم يتطوحون إلى الوراء، ويصفقون بأكفهم ، فانتشى (أبو عاشور)، ونشق مخاطه ، مسح شفته العليا الفارغة من الشارب، وارتعشت يده الموشومة في أكثر من موضع وهي تصب الشاى في الكوب، وانحنى فوق الرمالة ليمد الصينية للزبون الذي قال له جذلا:

- الله يزيدك من علمه.

نفث الشيخ الدخان من طاقتي الأنف، وأبقي بعضه ليكتمه في رئتيه، وسعل، ورجع إلى الوراء ليخرج منديله المكور في جيبه، بصق فيه، ثم وجه حديثه للرجال:

- قبل أى حاجة يقرا كلام ربنا صح.

ولم يرد (أبو عاشور) إفلات الفرصة، فوجه سؤاله إلى الشيخ:

- طب الكلام دا حصل فين؟

- كلام إيه؟

- لما سيدنا يوسف رموه أخواته في البيــر، وعــدى عليــه سواق عربية، كان عايز ميه لأن الموتور سخن منــه، قــام رمى الجردل في البير، كان سيدنا يوسف قاعد تحــت فــي المية، لما شاف الجردل مسك في حبله، السواق شد من فوق لقى الجردل وزنه زاد قوى، قعد يشد لغاية لما لقــى ســيدنا يوسف عيل صغير طالع له من الميه، قام أغمى عليــه فــي الحال.

- شوف الرجل الأهبل ، سواق إيه وهباب إيه؟ هو كان في الزمن دا عربيات.

- الشيخ بيخوض في كلام ربنا يا اخوانا.. أمال فسر الآيــة الكريمة: (وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يــا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون).

يعني إيه سيارة يا رجالة؟

- العربية طبعا.

- قولوا لأخينا اللي حيكفر على المسا، أنا خدمت في نفــس المنطقة في حرب فلسطين، وحصلي نفس اللي حصل لسواق

سيدنا يوسف، أنا كنت سواق بريمو، فاختاروني أسوق سيارة اللوا، وفي يوم سخنت العربية مني، ومريت على بير، الخالق الناطق بير سيدنا يوسف، حاكم البلاد دى ما تشربش من ترع وبحار زى حالتنا، كلها بتشرب من آبار تجيب لهم الميه من تحت الأرض، رميت الجردل في البير وشديته بعزم ما في، وفي اللحظة دى افتكرت سيدنا يوسف.

- السيارة يا جاهل يعني الناس اللي بيمشوا على رجليهم.

- والنبي يرضي مين الكلام ده، اسيب كلام ربنا وامشي وراء الشيخ.

- أنت حر.. امشي ورا اللي يعجبك.

وتبسم المعلم عثمان للشيخ، ودفعه بيده ليحضه على مواصلة الحديث، متعته تصل مداها حينما يرى هذه المناوشة بين الرجلين، كلما خمد لهيبها، أعاد فتح الموضوعات التي تسبب الخلاف بينهما ، فكل منهما يدعي أنه على حق وكل منهما يريد أن يبرز قدراته في مواجهة الرجال، هؤلاء الذين طمست ملامح وجوههم خلف كتل الدخان الكثيفة.

- طب خد دى يا مولانا.

- نعم.

- يوم القيامة، الناس كلها حتشاور على رجل معين، وتقول أبونا آدم آهه، الكل حيعرفه بعلامة مميزة، إيه هي؟

- الوحيد اللي مالوش سرة لأنه لم يولد من امـــرأة كبـــاقي الخلق. فهتف الرجال للشيخ:

- الله أكبر.. الله أكبر.

فكشر (أبو عاشور) وألقى الحجر الذي ينظفه جهتهم، وقـــال ساخطا:

- اصبر يا مغفل منك له.. حتشجعوا الغلط؟

- غلط إيه يا (أبو عاشور) ما هي واضحة زى الشمس.

والتفت إليهم القنصل، بعد أن قام ليغير ماء الجوزة.

- صبركم بالله أبويا عنده تفسير تاني.

- أبونا آدم كان له سرة.

- أزاى يا (أبو عاشور)؟

- ربنا سبحانه وتعالي لما سواه من الطين، وقبل ما ينفخ فيه من روحه، ركنه شوية في الشمس، علشان الطينة تنشف، قام جه إبليس اللعين وهو بيتمشى في الجنة، ما هو مـــا كـــانش عصي لسه، شاف أبونا آدم متمدد قدامه، وهو ما يعرفـــوش فمد صباعه على بطنه، يسأل بينه وبين نفسه: إيه ده؟

فبانت السرة من يومها.

- يعني سرتنا دى صباع إبليس؟

- عليك نور.

وترك الشيخ انشغاله بفض الحشيشة من ورقـــة الســـوليفان ليقربها من أنف المعلم، بعد أن عضعض عليها بأسنانه.

- الرجل بيخرف.

وسأل المعلم عثمان (أبو عاشور).

- طب سيبنا من حكاية السرة دى. الناس حتعرفه إزاى؟

- قلت لي ازاى؟ من الحتة الفاضية في صدره.

- حتة إيه يا فضيلة الشيخ؟

سأل الشيخ سعدون ساخرا.

- مكان الضلع اللي ربنا خلق منه أمنا حوا.

- جاك كسر ضلعك، ارمي طقم هنا، وسيبك من الهلس.

- أهو قال هلس يا رجاله.

- يعني انسحبت يا شيخ؟

- يا عبيط منك له، الرجل بيضحك عليكم علشان يطير شوية السطل من دماغكم، وترصوا طول الليل، وانتوا مش داريين، وهو يملا جيبه..دى خطة جهنمية ما تخلش علي.

- برضك نعتبرك منسحب.

- منسحب.. منسحب بس اعيش.. رص يـــا قنصـــل وقـــل لأبوك يبطل كلام، عايز اتفاهم مع الرجل في موضوع مهم.

وأشار نحو المعلم عثمان..

هدأ الرجال، وتداخلوا في أحاديث جانبيـــه بصـــوت خفيض وانشغل (أبو عاشور) بعمله، يرفع الماء البارد مـــن (البستلة) الصاج، ويدلقه في البراد المـــدفوس فـــي الرمـــل الساخن، وحين يلقي إليه القنصل بـــالطقم الفـــارغ، يخـــرج الحجارة، ينظفها من المعســـل المحـــروق، ويحـــافظ علـــى الحصوة ليعيدها إلى ثقب الحجر، ويحشوه بالمعسل اللزج من علبة البلاستيك الكبيرة، ويصف الأطقم حتى يرتفع بناؤهـــا، يسحب منها القنصل الواحد بعد الآخر، وهـــو يتنقـــل بـــين جماعات الرجال المنتشرين على الحصير المهترئ واتضح صوت مقرئ المذياع يردد التلاوة بإيقاع رتيب ، وكان (أبو عاشور) من وقت لآخر يقطع الصمت صـــائحا: وحـــدوه.. يرقبه القنصل باهتمام، لأنه يخشى أن تأخذه الجلالة فجـــأة، فيتمدد بطوله مغشيا عليه خلف الرمالة، يقوم إليـــه ليـــرش وجهة بالماء البارد، ويدس البصلة المنزوعة القشرة في أنفه،

فينتفض الرجل، ويطوح بذراعيه، والقنصل يمسك بهما، ويضغط على ساقيه حتى لا يطيح بالآنية التي يغلي ماؤها ويختلط بخارها بدخان المخدر.

يصحو (أبو عاشور) من إغماءته مأخوذا، يعيد ربط شال العمامة المفكوك، ويمسح بكمه الدموع التي سالت مع سواد الكحل على صدغيه، ويفرك فتحتي الأنف بظاهر كفه.

حين يعتدل على (الشلتة) يجول بناظريه على الجالسين الذين اعتادوا على سقوطه المفاجئ، فلا يحرك أحدهم ساكنا، ويصرخ فيهم بعتب: ما تصلوا على الحبيب النبي.

- اللهم صلي عليه.

ويعود إلى الاستغراق في عمله مشنفا أذنيه للصوت الرتيب. همس المعلم عثمان في أذن الشيخ سائلا إياه:

- عملت إيه؟

- كل خير.

كان القنصل قد تحرك إلى جلسة أخرى.

والمعلم الذي أدفأ القطعة البنية بين يديه، راح يقطع منها قطعا صغيرة، ويصفها على ورقة بيضاء نظيفة واستطرد الشيخ قائلا:

- قابلت الولد واتفقت معاه.. كله تمام.

- وافق؟

- يقدر ما يوفقش.

- لك الدلال على الست الوالدة.

- والله ما تعرف أنا عايزه ليه، ولما سألت قلت لها عايزينه يغني في فرح.

- عليك نور.

- المهم تجهيز الأوضة اللي حيدخل فيها، والاتفاق مع العربية اللي حتزفه، وتكلم الواد الكوافير على أساس إنه حيتعامل معه كعروسة عادية، وبعدين شوية الحاجات إلى حتتحط في (السبتة) لزوم عشا العريس والعروسة.

- خلصنا كل الكلام ده.

- قدها وقدود يا معلم.

- المهم السرية التامة.

- ما تنساش الواد أخرس.

- أخرس!! دا أنت اللي أخرس.. والله لأربيه.

نـهار العُرس

- ١ -

كم انحرف رأسك يا حودة؟

امرأتان في امرأة واحدة!! كيف تغادر فرشتك الحقيرة إلى هناك؟ كيف أسري بك بعد أذان الفجر؟

كنت منتبها ليقظة أخيك حين قام في موعده، وأردت القيام معه غير أنه أشار إليك أن أبقي – هكذا قال المعلم – إنه يوم عرسك ، فاستعد حتى أعود إليك آخر النهار.

ولم تعد واعيا لشيء فيما بعد، لا تدري، كيف غسل وجهه، ورفع أدواته، وأغلق الباب من خلفه، كعادته كل يوم، لقد استسلمت للنوم اللذيذ، فمثل هذه الساعة من اليوم، تكون بالخارج، أما أن تقضيها في فراشك، فهذا هو الجديد، وجذبك النوم إلى بئره العميقة، وأسلمك من حلم إلى حلم حتى رأيت نفسك هناك، تصعد الدرج المظلم.

ووجدتها بانتظارك، في ثوبها الحريرى الشفيف، وعطرها الذي يدوخ الرأس، وشعرها القصير الهابط على الجبهة في (قصة) مثيرة، تفتح لك أحضانها، وتدخلك في ردهة تراها من الخارج، ولم تدسها أقدامك أبدا.

لا وجود للمعلم في المكان.

وكفك مستسلمة لكفها الناعمة اللدنة.

في غرفة النوم ألقت الثوب على الأرض، قطعة فوق قطعة ، وأشارت إليك أن اصعد، و.. عثرت على عريك كاملا غير منقوص بين ناموسية، صارت هي الكون نفسه، وحين كنت تتقلب عليها رأيت وجه فكيهة على نفس الجسد، كان الوجهان يتبادلان، يبدوان ويختفيان وأنت في حيرة، أيهما تحافظ على ثباته؟

وأنهكك الجسد الواحد بوجهين، فلم تصل إلى شيء، بسبب الحيرة، فهبطت على بطنك مجهدا لتقوم من غفوتك لاهثا فوق وسادة منقطة بدم البراغيث، عدلت من وضع جسدك المرهق المأخوذ بالبهجة.

ونمت على ظهرك لترقب نور الشمس الذي اقتحم ثغرات الخشب المرتفع لنافذة غرفتك المطلة على الشارع.

لم تر شمس الصباح في هذه الغرفة أبدا..

فهيا لتستقبل يومك الجديد، واحمد الله أنك لم تهدر ماءك في حلم مجهد، وقفت على ساقيك، وتمطى جسدك في كسل غير معهود، ونثرت ماء الحنفية الصاج على وجهك،

وجففته ببقايا الفوطة الملقاة على فرشة زكي، وأطلقت ضلفتي النافذة إلى الخارج فانعتق النور، وتدفق في شعاع قوى يحمل ذرات نشطة، أبانت قبح الغرفة، ودمامة أشيائها الفقيرة، جعلت بقايا الجبن بين شطرى الرغيف الذي تركه زكي لإفطارك ورحت تقضم اللقيمات وأنت تدفع القفل في الرزة الصدئة.

حجرة الأزهرى مغلقة، لقد ذهب إلى معهده إذن... ورأيت عايدة العمياء بصحبة نوال يرقيان السلم، وهما ترفعان صرة الفطائر التي عادتا بها من المقابر صباحا، هكذا نهضت اليوم عكس الحركة المعتادة..

ماذا تفعل فكيهة في مثل هذه الساعة من النهار؟

هل ذهبت إلى السوق لتشتري خضارها؟ أم تراها قابعة في حجرتها، تقضي النهار الطويل بانتظار عودة فكرى من عمله؟

فلتلق نظرة من شباكها..

وتذكرت الحلم وجنونه، فاهتاج بدنك مرة أخرى..

(فات الكثير ما عاد إلا القليل).

الليلة ستضع نهاية لهوس الرغبة، الليلة ستتعرف على جسد امرأة مجهولة، ماذا يهم؟ إنني أثق في ذوق المعلم) له خبرة في النساء لا ينكرها أحد، أنظر إلى زوجته الجديدة، هل في البلد من هي أجمل منها؟

صحيح أنه لن يتخير لي امرأة في جمالها، ولكنه على الأقل سيتخير امرأة معقولة).

ودون قصد أو بقصد اشرأب عنقك لتنظر إلى حجرة فكيهة، فرأيتها ترفع الجلباب الأسود عن بدنها، وتلقي الطرحة على الكنبة (لقد عادت لتوها من السوق).

هزت رأسها لتسقط فردة الحلق المعلقة بخصلة الشعر، فرأتك، أردت الانسحاب في حرج غير أنك رأيتها – وعلى غير العادة – تبسم إليك.

تركت عينيك تتأملانها طويلا والبسمة لم تفارق وجهها، بل بادلتك التحديق، وظلت العيون في اشتباكة ممتدة حتى تاه عنها النظر، وصارت الرؤية غير محددة، وضبابية، ورفعت ذراعها نحوك: إيه يا أخينا حتقضي اليوم كدا؟؟.. أشارت إليك جاعلة من قبضة يدها اليسرى كوبا ، وسبابة اليمني ملعقة تقلبها بين فرجتها: تشرب شاى؟

فصرخ الدم في عروقك، وفاجأك أنك ،وجدت كفك ترفع إلى جانب رأسك لتقول لها: شكرا.

أدارت ظهرها نحو الباب قائلة بتبرم: شكرا.. شكرا.. أنت حر. واحترت في وقفتك.

هل تخرج إلى الشارع، أم تعود إليها؟ لتؤكد حاجتك للشاي، لماذا لم تترو في إجابتك؟ هذه أول دعوة صريحة منها. يالك من حمار، أضعت الفرصة ، ثقلت أقدامك، وتردد خطوك، وقفت على الباب الكبير تطل على الشارع، ترصد حركته، في وقت لم تدركه من قبل.

ظلة التوت مغرية بالجلوس تحتها، بعد قليل.. ربما اجتمع النسوة يعاون بعضهن البعض في تنظيف الخضار، وتنقية حبات الأرز من الطوب الصغير، على أن يقمن للطبيخ بعد أذان الظهر، وأحسست بالكف التي تربت على كتفك ، تلفت إلى الوراء، ورأيت بسمتها التي لم تفارق وجهها، كانت تريد الخروج إلى الشارع بكيس الخضار، وأردت أنت أن تزنق الجسد الفاره في الضلفة نصف المفتوحة، وأشرت عليها بالمرور من أمامك، ولكنها أبت،

وأشارت إليك لتهبط من العتبة، فالمساحة غير كافية لمروقها.

أشرت إليها بأنك رجعت في كلامك، وتريد أن تشرب الشاى من يدها، وردت على إشارتك في دلال: فرصة ثانية.

سألتها بالإشارة: متي تجودين بالفرصة الثانية؟

وأشارت إليك وهي تعبر الشارع: في المشمش.

وراغت منك لتجلس تحت الظلة، وغادرت فتحة الباب متحسرا.

تقول لنفسك (وماذا يهمني من هذه المرأة؟ ربما فاق جمال عروستي جمالها، أو على الأقل ربما شابهتها. في هذه الحالة سأبوس يد المعلم، وأجعل خدى مداسا له، على مدى الأيام).

وانطلقت إلى شارع السوق..

درت دورة كاملة حول سور البيت الكبير، تستظل بشجرة الأخضر الريان المائل نحو الشارع حتى تخرج من جهة بابه القبلي لتستقبل من هناك شارعا فرعيا ضيقا ينفتح على شارع السوق المزدحم بالخلق.

سرت بين المحلات المفتوحة الأبواب..

البرادعي يعلق أدواته بالخارج بينما هو لا يفارق مكانه في ظلمة الدكان، بين يديه حبات المسبحة التسعة والتسعين، وأمامه قاعدة خشبية ترفع دفتي المصحف الذهبي الغلاف، يميل إلى الأمام وإلى الوراء يرتل الآيات بصوت خفيض، ويقوم ليرفع الأذان من مئذنة جامع السوق، يكتفي بالظهر والعصر والمغرب، ويغادر إلى داره حيث يترك أذان العشاء والفجر لأمين الأعمي.

رفع البرادعي رأسه قليلا، ولوحت يده البيضاء بالمسبحة وهش في وجهك ببسمة طيبة ودود ، ورددت عليها بمثلها وهتفت إليه بصوت عال: آب..آب..

وأشرت إلى السماء، فرفع كفيه أمام وجهه ، ودعا لك .

ومررت على الإسكافي ، وتاجر الحب، والحصري.

ثم وقفت تتأمل فاروق الحداد ويده العفية التي ترفع المرزبة عاليا لتسقط على وهج الحديدة الملتهبة، فتدقها بقوة لتجعل منها رأس فأس تقلب الأرض، أو منجلة تحصد الزرع، أو (شاكوش) يحفر حجر الطاحونة.

حين رآك توقف عن العمل، بعد أن دس طرف الحديد في الفحم المتقد أمام فوهة الكير، وأشار للصبي ليشد الحبل المربوط ببكرة في سقف الدكان فيرفع الرئة الضخمة للكير حيث يدفع الهواء المخنوق أمام الجذوات، تعلق الولد بالحلقة، واستغرقه الجذب بينما وقف فاروق ليشير إليك بعلامات التهنئة، وأنه سوف ينهي عمله قبل المغرب فيذهب إلى داره، يرفع السواد عن وجهه ويديه، ويرتدى جلباب العيد ليتقدم المهنئين بالعرس، وأشار بذراعيه إلى الدكاكين على الجهتين، ورفعت يدك إلى رأسك لتشكره.

وتغادر دكانه لتقع عينك على فارس الواقف بسرواله الكبير الواسع، وصداره المضموم بأزرار كثيرة على صدره.

كان يميل بجسده على منشار طويل، دخل في منتصف دائرة جذع الشجرة الطري، ثبت فارس قدميه الحافيتين في لحاء الجذع الممدد بين رافعتين خشبيتين على الجهتين، مسح العرق عن جبهته، وأشار إليك مبتهجا، رفع عمامته عن رأسه، وقال إنه سيسهر مع الغوازى حتى الصباح، وقبل أصابعه المضمومة، وأشار إليك بأنه سمع أن

المعلم قد اتفق مع أجمل راقصتين في البر كله، ثم أشار إليك بأنه سيعزمك على كوز بوظه يدفع الشجاعة إلى قلبك فتدخل على عروسك دون جزع.

وأشرت إليه بعدم احتياجك للبوظة، فالشجاعة متوفرة والحمد لله، وأشرت إليه بأنك تتشرف بحضوره العرس هو وأهل الشارع جميعا. عاد فارس ليتفل في كفيه، وانحنى على منشاره العصي ليقطع في قلب الجذع الحي.

ومررت على تاجر المبيدات ، ومقهى التهامي، ومعمل مكاوي للمياه الغازية، وتوقفت أمام دكان (أبو نعمة) الخياط، وجدته هناك وراء البنك المنخفض يقص قطعة القماش المفرودة أمامه، وصبيانه من حوله، الكبير منهم يميل على الرأس الأسود لماكينة (سنجر) والآخرون توزعوا في المحل، واحد علق القيطان في أصبع القدم وجعل يثبته بإبرة رفيعة حول عنق الجلباب الصوفي، والآخر يرقب الجميع بانتظار أوامرهم فينقل المقص لهذا، أو يرفع المسطرة لذاك، أو بانتظار المشاوير الخارجية فيبتاع الزراير والقيطان أو يذهب إلى محل العراوى ليمكن جوانبها.

ألقيت السلام بحركة من يدك، وترددت بين لسانك حروف مبتورة غير مكتملة: آر..آر..

فانتبه إليك (أبو نعمة) ورفع رأسه العريض فتدفق الدم الأحمر في خديه المكتزين، وشاعت البهجه في أعطافه.

- أهلا بالعريس.

وأشار إليك لتجلس على الكرسي الفارغ، وأشرت إليه بأنك مشغول، ووراءك مائة مشوار، فهل أنهيت جلباب العرس؟ أشار (أبو نعمة) إلى صبيه ليأتي بالجلباب الأبيض المطوى في الدولاب، وأتى به الولد مرفوعا بين عضديه بحرص شديد. وسألك: عايز تتأكد من المقاس؟

حدفت يدك في الهواء متبرما مشيرا إليه بأنك جربت المقاس أكثر من مرة، وقبلت يدك، وقبضت على يد وهمية في الهواء لتقول له: تسلم يدك.

أشار إليك بأنه لن يعود إلى بيته، سيظل يعمل حتى يأتي موعد العرس فيصحب صبيانه إلى هناك، حيث اتفق مع باقي أصدقاء البوظة بقضاء سهرة رائعه على شرفه.

دفست رأسك في ياقة جلبابك المرفوعة على القفا وأشرت إليه وأنت تغادر دكانه: تشكر.

ثم تذكرت شيئا فعدت إليه لتسأله عن الحساب، فضرب كفا بكف، وقال لك : البركة في المعلم.. كله خالص.

وأشار بإصبعه على الشارب، وفرد كفه البضة على كرشه.

عدت بظهرك رافعا رأسك إلى سقف الدكان: آب.. آب.. تدعو الله بأن يزيد المعلم من نعيمه..

ومررت على الفخراني، ومقهى شكوكو، والبقال.. طرقت أنفك رائحة البخور تتصاعد مع الدخان القادم من صالون العضل، رأيته من خلف زجاج الباب، بوجهه الضخم الذي يرفع شعرا رماديا هائشا وشاربا كثيفا تتوزع شعيراته الداكنة على الصدغين وتصفر في خيط رفيع أسفل الأنف.

وقف ببنيته المهولة وجلبابه الذي لا شيء تحته، صيفا أو شتاء، يمد كرشه أمامه فيحجزه عن الزبون الذي مال برأسه أمامه، واستسلم للماكينة التي تنزع شعر القفا.

فتحت إحدى الضلفتين، وتكثفت الرائحة العطرة في أنفك، ولمحت عود البخور مغروسا في شق خشب الطاولة التي ترفع أدوات الحلاقة.

استدار إليك العضل : يا مرحب بعريس الغفلة.

ولم تدرك معني الكلمات، وإنما استسلمت لإشارته:

اجلس حتى أنهي ما بيدى.

ورفع الزبون رأسه لبعض الوقت ليتنفس الهواء حتى أعاده العضل إلى وضعه السابق، ملأ رأسه الحليق بأصابع يده العريضة، ودفعه ليميل على الصدر، ودنا من القفا لينفخ الشعيرات الساقطة على قذاله.

رفع العضل الماكينه في يده، وأعاد تشمير كميه الواسعين وأشار إليك بحركة مبتذلة، وفهمت منها قوله (أخيرا ستدخل دنيا.. وتهيص هذه الليلة مع عروس يحسدك عليها شباب البلد جميعا)..

أشرت إليه لينهي عمله حتى يفرغ لك، ويحلق لك حلاقة العرس، وهي بالتأكيد ستأخذ منه وقتا طويلا، لأنك تريد حلق الشعر، ورفع شعيرات الوجه، وضبط الحاجبين، ثم حلق الذقن، وقص الأظافر، وما شابه.

مد العضل يده ليرفع جلبابك ، ويقول لك بجرأة اعتادها الناس فيه: وإن شاء الله نحلق عانتك فوق البيعة.

ضحك الزبون للحركة البذيئة، ولكنك صرخت فيه: أرب..أرب.. ركنت جلبابك على الكرسي، وأطبقت على

عنقه تريد فصل رأسه عن جسده، وافتعل الصراخ رافعا يديه إلى أعلي : حموت يا ههوه.. حوده بيقتلني .

وهمدت يداك إلى جانبيك من الجهد، ولكنه لم يتركك في حالك، اتجه ليقبض بكلتا يديه على رأسك، وقربه من المرآة: أعمل فيك أيه؟ أدوره الناحية الثانية؟ علشان تنام مع عروستك بمؤخرتك؟

تألم عنقك بالفعل فدفعته في كرشه غير أن يديك ارتدتا إليك، وكأنما صدمتا في جدار مسلح، نفخت فيهما متأففا، وقال لك العضل متشفيا. يا خرع.. والنبي هتكسفنا الليلة.

وجر الزبون عن الكرسي ليرفعك إليه: اتفضل.. إحنا نعمل اللي علينا والباقي على ربنا.

ها أنت ترى وجهك الأسمر الناحل في المرآة الصافية العريضة. وجه مشدود ومجهد، غارت عيناه في الجمجمة، ونتأت وجنتاه، وانخفض صدغاه كحفرتين فارغتين.

لف العضل الفوطة حول عنقك الهزيل، وأشرت إليه بحلق الذقن، ونتف الزغب المتناثر حول العينين والحاجبين وعلى الأذنين.

رفع العضل إصبعه إلى عينيه، وقال : أنت تأمر.

وأشار إليك: لو عايزني اجيلك لحد الدار أحميك، وأليفك مش حتأخر.

فلكزته بكوعك في كرشه المشدود الجلد.

حين انتهيت ، دفعت له أجره، فتأبى.

أصررت على الدفع، وهو أصر على الرفض.

وأنهى الحديث بالإشارة إليك: أنا لي تصرف تاني مع المعلم..

لسه قدامنا حنة، وتخطيرة، وسهرة طويلة..

هل تعود إلى غرفتك.. النهار لم يزل ممتدا..

وأنت تقاوم الشوق للتعرف على المكان الجديد الذي ستنقل إليه هذا المساء، أتغلق عليك بابك منتظرا؟

إن نفسك ترميك إلى اصطباحة حلوة على مقهى متولي.

ولكن هل تضمن الزبون؟

ربما نظرة هناك تحسم الأمر، ثم إنك تود لو تصل إلى محل الجزارة للتأكد من استعدادات العرس، وتخشى المعلم، فيفض الموضوع مرة واحدة، وتعود من حيث أتيت، ربما استطعت الإشارة لزكي من بعيد، ولكن هذا الملعون سيكشر في وجهك ويصيح : أنت كثير الشك، وصدعت دماغي بإلحاحك.

لن يرتاح لك بال حتى تتيقين بأن الأمور تسير كما تريدها لنفسك.

على مقهى متولي هاج الجميع لمرآك، والتفوا حولك يصفقون، ويتراقصون في دائرة. هؤلاء هم سائقو سيارات الأجرة وصبيانهم الذين ينادون على الزبون، وانضم إليهم راكبو الموتوسيكلات بلباسهم الجلدى وخوذهم الحديدية ونظارتهم السوداء الكبيرة.

شدوا عزيزة وأدخلوها وسط الحلقة، وحزمها أحدهم بشال يلفه حول عنقه، ورفع آخر صينية من تلك التي ترفع الطلبات للزبون ونقر عليها بإصبعه القوية.

واستجابت الخنفا للإيقاع ، وهزت بدنها، رافعة ذراعيها على رأسها، ودفعوك عنوة لتراقصها، فاستجبت خجلا ووقف متولي على النصبة يرقب الرقص مبتهجا.

ولمحت النسناس في ركن المقهى، يضحك بقوة، فيأخذه السعال، فيستجيب له بدنه النحيل، ويحمر وجهه، ويميل على نشارة الأرض باصقا من حين لآخر، ويدوس ببلغته مكان البصق.

حين همدت عزيزة، انسحبت من الحلقة، وخرجت وراءها تلهث من الجهد، وتفرق الرجال على الكراسي يتصايحون بصوت عال.

لا تدرى مقاصدهم، يتغامزون نحوك، ويضربون الكف بالكف، ولا تدرك ما يعنون، تجاهلتهم، واتخذت طريقك إلى النسناس، قبعت إلى جواره، فعرف طلبك ، ربت على ظهرك بطيبة، وأشار إلى متولي ليطلب لك الشاى، أكملت أنت إشارته بأن جعلت الإبهام في منتصف السبابة، ففهم متولي أنك تريد نصف كوب، ونصف ملعقة سكر.

لما أحضر لك الطلب، أخرج النسناس ورقة السوليفان الحمراء، وقضم منها قطعة صغيرة، سواها على

ظهر الملعقة، وقلب بها الشاى، وربت على ظهرك مرة أخرى: بالهنا والشفا.. إن شاء الله ترفع راسنا، وتبقي بري فكس.

ولكنك أشرت إليه بأن، لا تريدها الآن.

قضم قطعة أخرى، ولفها في ورقة صغيرة، أشار اليك: ودى هدية مني.. تحطها تحت لسانك قبل ما تطلع من أوضتك.. حتخليك حديد.. وكله على الله.

رفعت يدك إلى رأسك لتشكره، واحتسيت الشاى على مهل، وأنت تتأمل من ظلمة المقهي الشارع الكبير الضاج بالسيارات الغريبة القادمة من الشمال والجنوب.

ثم ها أنت تقطع الشارع، جلباب عرسك تحت إبطك ، ورأسك الحليق لا يدرأ عنك حدة الشمس اللاهبة، يشم أنفك رائحه البودرة التي نثرها العضل على قفاك، ومكان الزغب الذي نزعه بالفتلة، فتشعر أنك ترفع رأسا خفيفا لا ثقل له، رفعت – كعادتك – ياقة الجلباب إلى أعلى، ودفست الرأس النحيل بين كتفيك، وسرت لا ترفع عينيك عن الأرض، تتجاهل الناس، وهم لا يريدون تجاهلك. أنهم يهجمون،

ويجذبون، ويريدون الوقوف معك، لا لشيء إلى اللهو، والمزاح الفارغ.

أخيرا وقفت أمام نافذة المحل حيث يقف الزبون للحصول على طلبه، اختفيت بين بقايا الذبيحة المعلقة، وأشرت إلى زكي ، فلم ينتبه إليك، فوجئت بعمور يقبل نحوك، ويشير إليك: أدخل.. المعلم جوه ومعاه الشيخ.

لكنك نزعت يدك منه، فشدك إلى الداخل غصبا، ودفعك لتهبط الدرجتين، أشار إليك الشيخ. تعال . تقدمت محرجا ومترددا، أشار إليك المعلم: أنت في أجازة، وبادلته الإشارة بأنك تعلم، ولكنك احترت في يومك الطويل.

أشار إليك الشيخ: ليست هذه حجة، بل إنك في لهفة للتأكد من الوعد.

ومال على أذن المعلم ليسر إليه شيئا، أعاد المعلم جسده إلى الخلف، وفتح الدرج ليخرج مفتاحا كبيرا ثم نده على عمور ليقول له: خده وريه الأوضة، وعدي بيه على محل الجزم يختار له جزمه جديدة.

وأشار إلى حودة باسما: إن شا الله تتنتف على راسك ، وكركع الشيخ.

وقال: تنتقها عروسته إن شاء الله.

سرت بصحبة عمور في شارع الزراعية المزدحمة تتفادى تحية أصحاب المحلات ، وتغض البصر عن المعارف، فلا يعطلك أحدهم عن مشوارك.

وعمور يتقدمك بهمة حتى انعطف جهه محل الأحذية.

وقال للرجل: فين طلب المعلم؟

انحنى الرجل بظهره خلف البنك: جاهز.

رفع علبة من الورق المقوى، وأخرج منها حذاء بنيا وأشار إليك: دي مقاسك بالضبط. والا نتأكد أحسن؟

أخرجت قدمك من الشبشب الجلدى القديم، ووضعتها في جوف النعل، فانحشرت بعصوبة، دققت الأرض بقوة، فارتاحت القدم بداخله، أشرت للرجل بأنها مضبوطة، فقال لك بالإشارة : ألف مبروك.

وأكرمك الرجل بكيس كبير، أدخلت فيه الجلباب وعلبة النعل معا، فصار حملك سهلا، تمسك به يدك بحرص، وعدت للدخول في زحام الناس حتى خرجت سهلا، تمسك به يدك بحرص، وعدت للدخول في زحام الناس حتى خرجت

إلى الشارع الفرعي لتستقبل شارعا هادئا، لا تقطعه غير سيارة أو سيارتان على أوقات متباعدة، ثم قطعته مرة أخرى إلى شارع يأخذك إلى خضرة الحقول الممتدة.

هذا هو طريقك اليومي إلى بيت المعلم الذي حرمت منه، دون أن تعرف سببا لذلك، التقط أنفك رائحة سباخ المعلف مختلطا بأنفاس الماشية، ورفعت رأسك إلى أعلى لتطالع وجهها الجميل يطل من الشرفة.

كانت تعصر قطع الغسيل، وتنشرها على الحبال، تجاهلت نظرتك، كما تجاهلت تحيتك ، وحين كررت المحاولة، لم تلتفت إليك أبدا ، فصحت بها: آب..آب..

وهززت يدك إلى جانب رأسك.

ضاقت بصياحك فبصقت على الأرض بغضب، ثم رفعت كفها إلى عنقها المضيء، وحزت به مرات عدة، بإشارة تفهم منها أنها ستذبحك.

(هي لا تريد التحية إذن، ولا تريد أن ألفت إليها نظر الناس وهي في الشرفة) جره عمور ليدخل به من المعلف العريض، ثم رقى أمامه سلما ضيقا استقبل غرفة وحيدة فوق السطح لم تزل رائحة الجير تفوح منها نفاذة وقوية.

أشار إليه عمور: ابسط يا عم: أوضه بفرشتها من مجاميعه، وفتح بابها ليطالع سريرا بأعمدة سوداء عالية، عليه فرش جديد، ودولاب لخشبه لمعة برقت حين أضاء نور المصباح المعلق في السقف، وكنبة عريضة عليها قطع من الكليم القديم، وحصير جديد مفروود وسط الغرفة، وسحب عمور من تحت السرير كراتين بها أدوات الطعام، حلل وأطباق، ووابو بريموس، وأكواب شاى، وفنجانين للقهوة.

أشار إليه عمور :المعلم رجل بركة، استغنى عن فرش أمه وجدده، وقال قدامي – وأشار إلى عينيه – مش خسارة فيه.

وعدت بظهرك، لا تدري ، هل تسعد أم تحزن؟ (أكنت تنتظر أكثر من هذا؟ أحمد الله ، إنك تبدأ من لا شيء، لم توفر مليما في حياتك ، وكتر خير الرجل، لم يطلب منك شيئا ، كما لم يلمح بأنه سيخصم شيئا من راتبك.

فلتكن بداية مع عروسك الجديدة، وبجهدك، وعرقك، ضع القرش على القرش وحسن أوضاعك، والعمر أمامك مديد، يكفي أنك ستعيش حياتك الخاصة مع زوجة، وتفارق حياة أخيك، وتبعد عن سيطرته.

هنا ستكون رب البيت.

حقا.. لم تكن الغرفة على المستوى المأمول، ولكن، لا بأس ، سأرضى بالقليل ، وسأجعلها بداية لحياة جديدة).

وعاد ليهبط السلم خلف عمور المتعجل.

وأشار إليه في الطريق ضاما أصابع يده إلى فمه ، وقبلها: مفيش أحسن من كدا.

هززت رأسك باستسلام، ودفعته من ظهره ليسير في شارع الزراعية المزدحم ، أما أنت فآثرت العودة إلى حيك من هذا الشارع الهادئ.

تتساءل والقلق ينهش فؤادك (لماذا كانت على غير عادتها، لقد بصقت في وجهي، وأشارت بعلامة الذبح؟ هل أغضبتها في شيء؟

ودرت برأسك إلى الخلف رفعت وجهك فوقع بصرك على الغسيل، وكانت قد اختفت خلف باب الشرفه المغلقة.

- ٢ -

أيقظه الطرق الشديد على الباب، غادر الكائنات التي كان يلهو معها، ورفع جفنيه ليطالع صور سعاد حسني

وحسن يوسف وشكرى سرحان وهند رستم، وصور العديد من الممثلين والممثلات الأجانب على رأسهم مارلين مونرو وصوفيا لورين وكارى جرانت جميعهم في أردية البحر التي تكشف أكثر مما تخفي، صور ملونة يضيئها النور الشاحب الساقط من زجاج النافذة البحرية.

سرعان ما انمحت وجوه النوم، وتأكدت الوجوه التي أحبها ولا يعرف معظم أصحابها، جمعها من (الكواكب) و (آخر ساعة) عشوائيا.

إنه ينسى أحلامه بسرعة فائقة.

لا تبقى غير الكوابيس التي تأخذ بخناقه، وتجبره على الاستيقاظ للانفلات من القبضة القاسية التي تودى به، يظل لفترة مشلولا غير قادر على الحركة، وينعقد لسانه في سقف الفم، فيعجز عن الصراخ، أو الاستغاثة أو طلب النجدة.

ومن ينقذه في هذا البيت الساكن؟

الأم غادرت إلى عملها، وهو محكوم عليه بالوحدة.

لحظات المتعة تتقد في الأعراس، بين الناس، حين يطلق عقيرته بـــ (ودع هواك وانساه) و (حبيبي وعنيه) و

(أنا قلبي إليك ميال) في مايك يضاعف صوته عشرات المرات، عبر سماعات كبيرة تتوزع في أركان الشادر.

وتجدد الطرق..

هذه المرة كان على ضلفة النافذة..

وسمع صوتا مستنكرا عدم الاستجابة (لو قتيل كان صحي).

- أيوه.

- يا أخينا النهار خلص

- مين؟

- أنا عمور.

- عمور مين؟

- افتح .. وبعدين أقول لك.

قام يلملم أطراف البيجامة المفتوحه الأزرار، ويمشط شعره الناعم بإصبع يده، ثم دلك وجهه بكفيه، وتثاءب بكسل ، بعد أن مط جسده إلى اليمين وإلى الشمال، بحث عن الشبشب إلى جوار السرير، وضع قدميه بالخطأ.

وتجدد الطرق على الباب...

- أصبر.

- الله يطولك يا روح.

بدل الشبشب في القدمين فارتاحت القدمان، أراد أن يخرج ريحا، ولكنه تراجع حتى لا يسمعه من بالخارج، فتح الباب الكبير فضرب الضوء الأصفر عينيه، فظللهما بكفه.

- نعم.. مين حضرتك؟

- حضرتي عمور تبع المعلم عثمان.

أخذه بنظرة شاملة بعد ما تشبعت العينان بنور العصرية الهادئ، راعه الدم المتناثر على الجلباب الأبيض القذر، والسكاكين المغروسة في حزام الوسط، ورائحة اللحم المتعفن التي تسربت مع نسمة العصاري.

- ابعد شوية.

- ابعد أروح فين ؟؟ أنا جاى أبلغك كلمتين وماشي لحال سبيلي. وتلقى منه الكلمتين، وهو يدفع إصبعيه إلى فتحتي الأنف، وزاغ ببصره بعيدا عن سحنة الرجل الساخرة، وتعلقت عيناه بالنور الأصفر الخفيف المعلق على واجهات الدور المقابلة.

- مش قوى كدا..

- خش في الموضوع لاسيبك وادخل.

- المعلم عثمان بيقولك كله جاهز عند كوافير (لولو).

- طيب.. خلاص..

- العريس حيجي ياخد جنابك من هناك.. والهلمة كلها هتكون هناك وأوعاك الموضوع ينكشف.

- علم يا سيدى.

- سيبناك بعافية يا أبلة.. يوه.. يا أستاذ.

- جاتك داهيه تاخدك.

ودفع الباب بعنف في وجهه.

جاءت قهقهات الرجل عبر الشراعة المضيئة، ولم يهدأ حتى توارى الظل البغيض عن الزجاج.

في هذه اللحظة استطاع أن يريح بطنه من الغازات دون حذر، ولم يمنعه هذا من دخول الحمام ليقف أمام لحوض يتأمل وجهه في المرآة، ويقلب بأصابعه المرهفة في جوانبه.

غرف الماء بكفيه، ونثره على وجهه، ومرر الأصبعين في فتحتي الأذنين، رفع شفتيه ليطالع أسنانه البيضاء اللامعة، ضغط على اللثه العليا، واللثة السفلي،

ودفق الماء في الحوض، ثم عاد إلى الرغرغة، رفع المشط بيده، ومرره على الشعر لينيمه على جنب ، جعله إلى الوراء مرة، وعلي اليمين مرة، وإلي أسفل مرة أخرى، ثم تركه على الشمال كما اعتاد، انزل سروال البيجامة، والسليب، وعلقهما على الشماعة، وأقعى فوق الفتحة ليخلي أحشاءه من فضلات تتقلب بألم، غسل نفسه جيدا، وجفف أسفله بمنديل، وأكمل خلع ملابسه ليستقبل ماء الدش البارد، دعك الصابونة بالليفة، ومررها تحت إبطيه وبين فخذيه، ثم بين فلقتيه ، ودعك حول الأذنين والقفا بحذر حتى لا يبلل الشعر فيتمكن من الخروج بعد وقت قصير، ومد يده إلى الحجر الأسود لينظف به كعبيه، ومرر الصابونة المعطرة بين أصابع القدمين، واطلق الماء بغزارة فوق جسده الأبيض الخالي من الشعر، سحب البشكير ليجفف بأطرافه أنحاء الجسد، لفه حول وسطه، وأعاد تأمل وجهه في المرآة، فشعر بالراحة والنشاط.

في الردهة، وجد الصينية التي تتركها أمه لوجبته اليومية، رفع الفوطة البيضاء وغمس لقمة طرية من عسل

النحل ولقمة أخرى من الجبن، وأخذ زيتونة سوداء بين إصبعيه وراح يقضم لحمها بروية.

هكذا تتركه أمه وحيدا بعد أن تنتهي من عمل البيت ترفع براميلها إلى البوظة لتعد شرابها لسهرة الليلة.

اللقاء بينهما عابر. عودته المتأخرة من الأعراس، وحين يعن له قضاء بعض الوقت بين زبائنها، ذلك في الأيام الفارغة من العمل بالنسبة له.

شهر في العام هو الذي يقرب بينهما، ويوفر الوقت الطويل للإقامة معا في البيت، رمضان، حيث لا بوظة، ولا أعراس.

تأخذه في حضنها، ويتمدد هو بطوله واضعا رأسه على فخذها تعبث في شعره الناعم، وتقص له الحكايات عن أبيه وجدته، وتسرح في أحلامها، وما تتمناه له في قابل أيامها.

وتنحني عليه من وقت لآخر لتقبل جبهته، فيخطف هويدها ويقبلها بحرارة، هذه اليد التي يشعر بها وهو مستغرق في نومه تتحسس وجهه بلهفة، تمسح عنه العرق، وتسوى الشعر الساقط على الجبهة.

وبين اليقظة والنوم يشعر بالنفس الذي يدنو منه ليقبل جفونه المغلقة على صور رائعة تضج بألوان صارخة، يسقط عليها ضوء قوى من مصدر خفي لتلعلع حبات الترتر على فساتين الغوازى، وتشرق على قطرات العرق فوق اللحم المكشوف.

أجسام حية تنتفض على خشبة مرتفعة مستجيبة لإيقاعات مجنونة لفرقة تذوب وجوه أعضائها في غلالة من دخان الحشيش والغبار الذي تثيره أقدام المدعوين الذين استجابو للإيقاع فراحوا يتمايلون ويهتزون ويلقون (النقطة) تحت أقدام الراقصة.

اقترب من المرآة ، مرآة حجرته الكبير الصافية، بعد أن أضاء لمبة السقف، أعاد تقليب الوجه، وتطلع إلى الزغب الخفيف على الأذنين وعلى الخدين، وغاظه نمو مثل هذه الشعيرات.

إنه لا يطيق أن يرى شعرة على بدنه، وهو في صراع دائم مع كل شعرة تطل برأسها من مسام جلده، يتولاها بالسكر والليمون، ويداوم ملاحقة البقع المتناثرة على الصدر، وعلى الساقين والعضدين.

لمح سعاد حسني تبادل صوفيا الابتسام في شقاوة عبر المرآة، فتلفت وراءه ليرى الأصل. كم تمنى أن يكون ممثلا، قام بأدوار محدودة في حفلات المدارس، أدوار سخيفة لا تبرز طاقته الحقيقية، الحفلات كانت مرتبطة بالمناسبات الوطنية، يحفظونها كلاما، لا معنى له، كره المدرسة، كما كره علومها، وحفلاتها الرسمية الكئيبة، ومدرسيها الذين يدعون الوقار ويحملون على كاهلهم عبء تأديب البشر. إنهم يسيرون في الشوارع وبين أسوار المدارس كالكهنة، يرفعون عصيهم تحت آباطهم، يلسعون بها الجلود بسبب وبغير سبب.

إنه لن ينسى هذا المدرس، أظنه كان مدرس اللغة العربية أو الدين، أو كلاهما معا، لقد وضعه على الكرسي، ومدد ساقيه المربوطتين بالفلقة بعد أن استدعى الفراش ليمسك برأسه من جهة، ويكبش ساقيه من جهة أخرى، وهات يا ضرب.. لماذا؟ وما الذنب الذي ارتكبه؟ سألة الزملاء، ولم يجب، كان يكتفي بالصياح: هو عارف السبب.

ولا يدرى دوافعه حتى هذه اللحظة، كل ما في الأمر أنه رأه مع زميل تحت السلم منعزلين عن لهو التلاميذ في الفسحة الطويلة المملة، كانا يعيدان اكتشاف أعضائهما

الصغيرة، نام الولد على ظهره بينما رفع حمادة مريلته إلى أعلى ، وسحب سرواله، ومال بوجهة يتأمل (بلبله) هل يشبه ما يمتلكه أم أنه مختلف؟

ووجد هوى في نفسه لأن يلعقه بلسانه، وإذا باليد الغليظة ترفعه من قفاه إلى أعلى، وتلقي به على البلاط، ثم يجرجره إلى غرفة المدرسين، وكان الولد قد قام من نومته مسرعا، كان يهرول وهو يجمع سرواله الساقط بين ساقيه.

هبد الأستاذ حمادة على الأرض، وصاح في وجهه: انتظر حتى تنتهي الفسحة ليكون عقابك أمام الزملاء جميعا..

لم يخسر شيئا بتركه المدرسة، خرج إلى الحياة الطليقة. يكفي أنها علمته فك الحروف، وكتابة الكلمات، مما أتاح له الفرصة لاقتناء المجلات التي تنقل له أخبار النجوم وتمكنه من كتابة الرسائل على العناوين المنشورة للجمهور.

وكانت سعاد أول من استجاب..

كتبت له:

(أستاذ حمادة..

إنني أحبك كما تحبني تماما، وأرجو أن أراك قريبا، بين استديوهات التصوير لتحقق رغبتك في أن تكون نجما مشهورا.

وليس هذا مستحيلا، كما تظن، وإنما هو أمر سهل لو كنت موهوبا حقا).

ورفضت أمه رحيله عنها، وعن البلد.

(هل تتركني وحيدة؟ وأنت نني عيني من جوه..)

(ها قد جاءت الفرصة لأبرز موهبتي، فلتكفي تجربة أولى، دور امرأة؟ هذا صحيح. ما المانع؟

كل الممثلين الكبار قاموا بمثل هذه الأدوار حتى الذين لاحظ لهم من الجمال أو الوسامة. على الكسار مثلا ، فعلها، اسماعيل ياسين، فعلها، ما بالك وانا امتلك قدرا من الجمال، مع بعض المكياج الذي سيضيفه منعم سأكون عروسا بحق، ولن يكشف أحد من البلد شخصيتي الأصلية. أتمني أن يكون المعلم والشيخ قد حفظا السر بما يكفي لإجادة الدور).

نضا كل ملابسه، الخارجية، والداخلية، وتحرك في الحجرة عاريا ليخرج حقيبته من الدولاب، فتحها ، وسحب منها ملابس نسائية شفافة.

ارتدى الكومبليزون والكلوت ذوى الألوان الحمراء، واحتفظ بالسوتيان والشراب الفليه في لفة سيأخذها معه، وعلق السلسلة الذهبية في عنقه، وأكمل ارتداء ملابسه الرجالي، القميص والبنطلون.

(لا داعي لإضافة أى شيء آخر.. منعم بالتأكيد عنده أدوات مكياج كاملة).

مال بجذعه على الضلفة المفتوحة، وسحب منها حذاء حريمي له كعب عالي، أدخله في كيس وأضاف عليه لفة السوتيان والشراب.

خرج إلى الردهة، وارتوى من القلة المعلق بحلقها غصن الريحان.

بعدها خرج إلى الشارع، وكان الظل قد تمكن من الجدران، فسيطر عليها جميعا، ولم يبق للشمس غير نتف من الضوء تبرز على حطب الأسطح وأطراف الصوامع وأبراج الحمام.

هاله الزحام عند محل منعم، حين دنا منه، هجم الشبان عليه، ورفعوه على الأكتاف ليهتفوا باسمه (حمادة.. حمادة..) كان يتملص منهم، ويدفعهم بساقيه غاضبا (نزلوني) ولكنهم أصروا على حمله حتى أنزلوه على طوار المحل المرتفع، وخرج إليه منعم ليهدئ من روعه، وفي حدة انفعاله سب الناس جميعا ، وعلى رأسهم المعلم والشيخ.

قال له منعم: أنت فاكر إيه؟؟ البلد كلها عارفة ما عدا واحد بس.

- وليه دا كله؟
- مزاج المعلم.
- أنا منسحب من اللعبة
- عيب.. أنت واخد عربون.
- طظ.. على الجزمة القديمة.

وأراد الهبوط عن الطوار، فأمسكوا به من كل جانب، ورفعوه مرة أخرى، وقالوا في نفس واحد: لازم تكمل للآخر.

- وأنتم دخلكوا إيه؟
- عايزين نتفرج.

- طب حلوا عن سمايا دلوقت لغاية ما منعم يخلص شغله. وانطلقت الحناجر من بين الزحام الخانق.

- مش حنسيب المكان لغاية ما يجي العريس.. ونزفكم في البلد.

- يا داهية سودة.

وجره منعم من يده، وأدخله المحل الرطب، وأنزل الستارة المصنوعة من خيط وخرز ملون.

- تفضل.

وأشار إلي الكرسي الكبير، وكبس رأسه تحت الصنبور، وبدأ يغسله بالشامبو، بعدها جففه بالفوطة، ثم أدخله في مجفف الشعر.

نده منعم علي صبيه، أشار إليه، فرفع الولد الستارة النبيتي السميكة، ثم خرج بفستان الزفاف الأبيض الفضفاض، فرده بين يديه، وقال:

- إيه رأيك؟

- أنا كنت موافق بنفس راضية بس الخلق اللي بره لبشوا جسمي.

- سلامة جسمك.. حاول تنساهم، وركز في الدور.

- بس دول مش متربيين خالص، سامع كلامهم اللي نازل زى الدبش؟

- انسى واديني وشك، حارسمك رسمه ما حصلتش ، واستسلم حمادة ليد الكوافير، وكان قد هدأ تماما، والزحام كان يتضاعف كلما دخل المساء.

بعد أن أضيء المحل بشكل مبهر سمعوا الهتاف من الخارج لما انطلقت الكلاكسات من بعيد (بيب.. بيب أهلي).

هدرت أصوات المحركات، وارتفعت الحناجر (حبيله.. حبيله) ورفعت ستارة الخرز ليطالعهما وجه المعلم والشيخ.

تقدم الشيخ إلى الكرسي، وتأمل الوجه عن قرب (اللهم صلي على كامل النور) (أنا طالب القرب لأجل حبيبي النبي).

فدفعه حماده بيده بدلال..

أشرق وجه المعلم بابتسامة بهيجة، وقال لمنعم:

- تسلم الأيادى يا أسطى..

- ثم تقدم من حمادة ليقول له هازئا: نعيما.

وسأل حمادة: هو العريس معاكم؟

- مستعجل على إيه يا قمر؟ ومال عليه الشيخ ليقبله من خده ، وأجابه المعلم:

- جينا نتأكد الأول.. حنبعت العربية تجيبه.

- والبرنامج إية يا معلم؟

- لا برنامج ولا يحزنون، شوية تفاريح.

وتدخل الشيخ ليشرح لحمادة الخطة كاملة.

- ياخدك العريس من هنا، وزفة في طول البلد وعرضها والبركة في الشباب اللي بره.. بعدين كتب كتاب صورى يعني كدا وكدا في الخيمة المنصوبة عند المعلف، وشوية غنا ورقص لغاية ما نهد حيلكم أنتم الاتنين، فما تعرفوش تعملوا حاجه.

- الاتفاق ما فهش عمايل.

- أنا عايزه يتصرع ساعة ما تكشفله عن نفسك.

- ومين يحميني يا معلم؟

- هو إحنا حنسيبك والعياذ بالله، كلنا حواليك.

- يمكن يكون معاه مطوه، سكينة، آله حادة.

- ما معهوض غير آلته.. وما تلحقش تعمل حاجه.

فكركع الجميع لتعليق الشيخ.

وعاد الزحام إلى الهتاف من جديد..

فخرج المعلم ليطمئنهم..

- كل شيء بأوان.

وأشار إلى العربه المزخرفة بالورق الملون لتذهب إلى العريس، وعاد إلى المحل مندهشا: إيه دا كله؟ ترش الملح ما ينزل.

وأجابه الشيخ: ولسه.

- ٣ -

حين هدأ شارع الزراعية، وكادت الرجل تنقطع عنه، وصار الزبون عزيزا جدا، أخرج المعلم عثمان حصيلة اليوم، فرزها قرشا قرشا، وجعل كل ورقة مع مثيلتها في ربطة واحدة، وصفها جميعا في الخزينة الحديدية السميكة الأبواب.

نظر إلى رجاله، فرآهم منتشرين بين بقايا اللحم المعلق، لا عمل لهم، فأصدر أوامره بإغلاق المحل، وانتحى بزكي جانبا: عايزك تكون راجل.

- سرك في بير.

- أنا عارف إنه أخوك، ويعز عليك، ويمكن يصعب عليك.

- هو راجلك برضة يا معلم.

- عايز أديله درس يطلع من نافوخه.

- اللي تأمر به.

- أوعى تضعف ، دبور وزن على خراب عشه.

- تأمر يا معلم.

- روح شطف نفسك، وتعال كمل سهرتك معانا هناك، ودفعه من كتفه خارج المحل ، وكان الشيخ سعدون قد قام يمط جسده البدين، ويدفعه يمينا وشمالا رافعا يديه إلى العمامة، وفتح شدقيه في تثاؤبة طويلة.

- الظاهر الواحد نام من غير ما يحس.

- شخيرك جاب لآخر الشارع.

- يا أخي صحيني.

وراك سهرة طويلة.. قلت سيبه يا خد حقه من النوم، والشيخ سعدون من عادته أن يحط بدنه في أى مكان، ما أن يتوقف عن الكلام، ويميل برأسه على كفه حتى يأخذه النوم بسهوله، ويطلق الغطيط الذي تدفعه رئتان عريضتان قويتان،

ينتفض فجأة ليمسح رواله براحة يده، وتزوغ عيناه صائحا (حي.. قيوم) ثم يعود إلى استغراقه كأن شيئا لم يحدث.

ادخل المعلم ذراعه تحت إبط الشيخ، وجره إلى الخارج، هابطا الطوار إلى الشارع، وكان يسير وراءه متثاقلا، يجمع قفطانه بأصابعه، يود لو عاد إلى فراشه لينام بعمق ويستجيب من حين لآخر لتثاؤبة ممطوطة تجبره على فتح فكيه حتى تؤلماه.

وزكي آب إلى داره متخاذلا مهزوما (راحت السكرة وجاءت الفكرة.. كيف ستواجه الخلق يا زكي؟) (تتواطأ معهم ضد أخيك؟) (كلام المعلم واضح وصريح فيه قطع عيش.. وأنا لا أجيد غير هذه المهنة، حتى عملي الآخر كبائع كبده مرتبط بالأول).

كان وجهه في الأرض لا يرى ما حوله..

يحس بأصحاب المحلات المفتوحة يتابعونه بأبصارهم، ويندهشون لعدم إلقائه السلام عليهم (أتمنى لو اختفيت عن الدنيا هذه الليلة بالذات).

- اللي واخد عقلك.

هكذا صاح دسوقي الفسخاني من وراء البنك الرخامي.

تلفت إليه، وطوح بيده في الهواء دون أن يرد عليه بلسانه (هل يستحق حودة مثل هذا العقاب؟؟)

(المعلم لم يذكر لي فعلته، ولا سبب غضبته عليه، وحين سألته اجابني باقتضاب، هو عارف، وسيعرف أكثر حين يحس بالرد بما سأفعله به ليلة عرسه).

(آه يا أخي، يا ابن أمي وأبي).

أول مرة أشعر أنك أخرس، لا تقدر على النطق.

لم أدرك أبدا أنك ناقص..

أول مرة أشعر أنك أصم ، لا تسمع.

أعيش معك كل هذا العمر، وأتعامل معك كفرد كامل الحواس ذكي ، ولماح.. بل "أكثر ذكاء ولماحية من كثيرين يملكون القدرة على السمع والكلام).

(البلد بأكملها تعلم شيئا أنت لا تدريه..

والجميع فرح.. من أجل الفرجة، كأنما هناك ثأر شخصي بينك وبين كل فرد على حدة.

هل لأنك تعرف عنهم أكثر مما ينبغي؟)

صار على رصيف المحطة، وكان خاليا من المسافرين، فرفع رأسه إلى أعلى سعيدا بالسير في مكان هادئ، فارغ من البشر، فطالعه قرص الشمس الأحمر يهبط وراء المنازل العالية لتبتلعه ذؤابات النخيل، وخضرة الحقول التي تمتد ما بين النهر وخط السكة الحديد.

مر على مقهى متولي، فوجد الكراسي خالية، تجمعها عزيزة من الرصيف إلى الداخل، ومتولي بالداخل يجمع أدوات المقهى في قفص الجريد.

- على فين العزم؟

- البلد كلها هناك، قلنا نعمل نصبة، ونستفيد من الليلة.

وسألته عزيزة.

- عايز حاجتك؟ وانتبهت فيما بعد، وقالت:

- صحيح دا أنت أخو العريس، مفيش كبدة الليلة.

وهز زكي رأسه بأسف، وسأله متولي:

- تاخد شوية شاى؟ تصافي الكنكة إنما إيه شوية في العضل. وتركهما مشغولين برفع أشيائهم، ومضى متفاديا السيارات المسرعة ليدخل الشارع الذي يهبط قليلا مما جعله

يعود بظهره إلى الوراء، ويحس بضغط جسمه على ساقيه النحيلتين.

رأى الجيران يقدمون على عجل، ينظرون إليه بدهش متسائلين:

– أخو العريس ولسه مالبستش؟

كانت النسوة قد أخذن زينتهن، مررن بمراود الكحل على رموشهن، وقرصن خدودهن ليدفعن الدم الأحمر إلى وجوههن. ونثرن العطر الرخيص على أجسادهن، وارتدين أفضل ثيابهن، كذلك كن قد حممن أطفالهن فبدوا في هدوم العيد وهم مجذوبين بالأيدى أو مرفوعين على الصدور في غاية من السعادة البريئة، تندفع النسوة صاعدات الشارع إلى حيث الشارع الذي ستضاء أنواره في حفل قد يمتد حتى الصباح.

تجاهلهن كما تجاهل ما رددن من كلام يستنكر وجوده في الحي مما دفع بعض الإحباط إلى قلوبهن.

رأى صاحب معمل الجبن على كرسيه فوق الطوار واضعا الساق على الساق، تعجب للمشهد، ومصمص شفاهه موجها كلامه لزكي:

- النسوان اتهبلت على آخر الزمن.

- الظاهر البلد شرقانة لأى فرح.

- ما يكنش على حساب المصلحة.. مين حيحلب البهايم الليلة.

حيسبوها لرجالتهم، ولا نقفل ونروح؟

همس زكي لنفسه (لا يهمك غير نفسك)

وتركه ليسير إلى جوار سور البيت الكبير.

كانت العصافير تتجمع مع دخول الليل بين أوراق التوت تشقشق بصخب عنيف، وكل واحدة تبحث عن عشها بعد أن ملأت بطنها من خيرات الأرض. لا يدرى هل صخبهم هذا إعلان عن فرحة الراحة مع الليل الطويل، أم هي مرثية للنهار الذي انقضى؟

اصطدم ببدن عايدة الخارجة من الباب في صف مع باقي أخواتها، تحسست بيديها صدره، ثم قالت بغضب:

- زكي !! بتعمل إيه هنا؟

وقالت أمها الواقفة بآخر الصف:

- مش المفروض تكون هناك؟ دا فرحكم.

- البركة في المعلم والرجالة.. حشطف جسمي والحقكم.

ووجدتها عايدة فرصة للتأكد، فسألته:

- صحيح المعلم دبح عجل؟

وقالت نوال:

- والله الناس كلها بتقول.. حيوزع على كل واحد من البلد كيلو لحمه نية.

وخبطت أختها بحلة الألمونيوم الفارغة للتحرك حتى تحصل على نصيبها قبل الزحام.

ولأن زكي لم يجب، أعادت (أم علي) السؤال:

- صحيح دبح؟

- يمكن يا خذ اللحمة اللي في الدكان.

- أهو كله لحمة والسلام.

وانتبه إلى صوت طالب المعهد الديني الذي التحق بالصف.

- بيقولوا جايب طباخ كبير قوى من مصر.

كان ينحني على ساقه المشلولة، ويرفع رأسه نحو زكي مترقبا الإجابة، حين مرق من بين الضلفتين سمح للصف بالتحرك.

وجرجر الطالب الأزهري ساقه، فارتفع التراب الناعم حوله، حرك زكي يده أمام وجهه لينفض التراب، وسعل بشدة، حتى تكون البلغم في فمه، بصقه على الأرض، وداسه بقدمه (رزق الهبل ع المجانين).

دخل على أخيه الغرفة فوجده متواريا خلف الملاءة المنشورة على الحبل ، ينقل الماء بالكوز من حلة ترسل بخارا خفيفا من سطحها ، وقف عاريا في الطشت لا ينتبه إلى ما حوله، يحاول إزالة رغوة الصابون عن وجهه، فتنهد زكي بعمق ووجد صوته يخرج وهو يحاول السيطره على مشاعره (يا حبيبي يا أخوى..).

وأطل عليه برأسه من فوق الملاءة مبتسما..

ومع إزالة الرغاوى فتح حودة عينيه المسرورتين ، وأشار عليه قائلا:

عقبال حمام فرحك.

انهار جسده فتمدد على الحصير يطالع سقف الحجرة، كاد أن يستسلم للغفوة التي جمعت أشتات طاقته المهدرة، بيد أنه أفاق على صوت أخيه :

آب... آب...

وأشار إليه ليقول له: هناك بقايا ماء يمكنك إن تشطف بها بدنك.

فرفع زكي يده إلى رأسه، وأشار إليه: حلبس ع الناشف. وقام إلى جلبابه النظيف فرده أمامه، خلع هدوم الشغل، ورش وجهه بالماء الفاتر وجففه بسرعة، ثم ادخل رأسه في فتحة الجلباب، ودون أن ينظر إلى أخيه أشار إليه.

حسبقك هناك.. ما تسبش الأوضة.. العربية (وجعل يديه تدوران على عجلة قيادة وهمي) حتاخدك من هنا ع الكوافير ، لأن العروسة هناك (جعل من الوسطى والسبابة مقص حلاق على رأسه).

أراد حودة كمحاولة أخيرة الاستفسار عن هذه العروس التي اختارها المعلم، فتهرب زكي منه، وغادر الحجرة بسرعة.

- ٤ -

فاجأك نور الخارج..

هل هو الخروج الأخير من غرفتك المظلمة أبدا؟

نور رمادى كامد، نور لا شمس له، هو بقايا الذبالة في المصباح الكوني الذي اختفى هناك وراء الدور والحقول، عتمة خفيفة جعلتك لا ترى ثقب القفل، ارتعشت يدك قليلا وأنت تحكم به غلق الرزة.

ما هذه الهزة في بدنك؟ هل بسبب توديعك للمكان الذي عشت فيه عمرك مع أخ يحدو عليك، ويرعاك، بعد رحيل الوالدين؟

ربما..

ربما لأنك مقبل على دنيا غامضة، لا سابقة لك معها، ولا خبرة لك بما أنت قادم عليه.

فلماذا أنت قلق من يوم عشت عمرك تسعى إليه؟

ألم يكن هذا حلم حياتك.. أنت تخرج من هذه الغرفة المقرفة؟

لتقيم في بيت خاص بك، مع زوجة تنجب لك ذرية تكون سندك في قابل الأيام.

لقد تحقق الحلم فعلا، المعلم – أطال الله عمره – وفر لك سبل الراحة، وقرأ بذكائه المعهود رغائب جسدك، وحققها لك دون أن يطلب منك مليما، فأنت محظوظ به.

التقطك من الشارع أنت وأخاك، ألحقكما بالعمل لديه، وها هو يوفر لك في الوقت المناسب بيت عرسك.

فهل أنت خائف ؟

ومما تختاف؟ أمن عسر هذه الليلة ومما يشاع عنها من عدم توفيق البعض في اللقاء الأول، خاصة وأنك تقدم نفسك للناس كوتر مشدود؟

لا هذا لا يخيف بالمرة.. الكثير من الرجال قد مروا بهذه الأزمة.

عبرت حياتهم، وصارت فكاهة يتندرون بها في الجلسات الخاصة.

وأنت والحمد لله ليس لك من يسأل عن توفيقك، وعدم توفيقك.

لن يحضرنا أحد، ستكون – أنا وهي – في الغرفة وحدنا بعد أن ينفض السامر، وإذا لم يسعفك جسدك اليوم، فلتأجلها للغد، أو بعد الغد.

أيكون لها أهل يسألون عنا؟ من هي أمها؟ من أبوها؟ من أخوها؟ هنا مربط الفرس. وسبب حقيقي من أسباب القلق.

من هي العروس؟

لو كنت عرفتها من قبل. ربما كان الأمر أقل اضطرابا..

(فلتكن من تكون، امرأة كأية امرأة).

وسبق أن أقنعت نفسك بأن المعلم رجل خبير بالنساء، وعندما يختار لرجل من رجاله سينتقي امرأة لائقة من حيث الجمال، والأخلاق. فالأمر يهمه في المقام الأول، أن يرضي رجله ليظل خاضعا له العمر كله.

قد تكون واحدة من هؤلاء الخادمات اللائي يترددن على المحل، أو فتاة فقيرة، ابنة رجل طيب، عمل لديه من قبل، أو ابنة رجل يعمل بالمعلف:

(فلتكن من تكون، فهي في النهاية امرأة كأية امرأة...

وأنا رجل كأي رجل... لما يغلق علينا باب حجرتنا سيكون لنا شأن آخر.

هذه زيجة تنتمي للأزمنة القديمة، أزمنة الآباء والأمهات، لم يكن رجل يطالع عروس المستقبل من قبل، يفاجأ بها ليلة الزفاف، وهو وحظه إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، أو كالبطيخة، أنت وحظك، حمراء أو بيضاء، هذا في علم الله.

الآن كله على (المكسر) فلماذا لم تجعلها على عادة أيامنا يا معلم؟

كنت ذهبت إليها وأنا أكثر هدوءا، وأسلم نفسا، أما الآن فحالي لا يسر عدوا ولا حبيبا، أدخل على مجهول!!

(هل هي تعرفني؟).

هل ذكروا لها اسم زوجها الذي ستنتظره وحيدة في الحجرة؟

هل تردد في سمعها اسم الرجل الذي سيلقي بنفسه في أحضانها هذه الليلة؟ هذا الرجل الذي سيفض خاتم السر، ويطلع على أعماقها الخفية.

أكيد لها أم قالت لها، أو أب تم الاتفاق معه..

وهي بالتأكيد لها أذنان سليمتان، ستسمع من أخت، من جارة، من قريبة، حين يذكرون لها اسمي ستعرفه .

أما أنا كيف السبيل إلى تعريفي بها؟

بالإشارة؟

لن تكفي لتحديد امرأة بين الآف النساء في هذه البلدة، لابد وأن تكون قريبة من عالمي جدا، فأتمكن من معرفتها بسهولة من أول إشارة، أو علامة ، من وجهها من مشيتها، من تكوينة الجسد، أية علامة، التقطها بسرعة ، وأعرف المشار إليها.

وكلما بعد الشخص عن دائرتك المحدودة تصعب الإشارة إليه إلا إذا كان معروفا جدا، أو تكون له علامة مميزة، لا يشاركه فيها آخر.

المهم انك هيأت جسدك لليتلك..

حلاقة جيدة، أعطاها العضل الوقت الكافي، عمل بذمه، وإخلاص فخبرته تؤكد له أن حلاقة الزبون العابر غير العريس، كما عمل بالفتلة في وجهك، فنزع الزغب، وصار الوجه ناعما يحبب اليد في لمسه.

وحمام دافئ نشط مسام الجسم، ليفة وصابونة معطرة دعكت بها جيدا تحت الإبطين اللذين نزعت عنهما الشعر العرقان ، ومررتها جيدا ما بين الفخذين ، بعد أن شذبت

شعر العانه بمقص من الحديد الصدئ، كان يفلت طرفيه على غير إرادة منك حتى كاد أن يصيبك في موضع حساس من جسمك، وكاد أن يقضي على فرحة الليلة كاملة.

الحمد لله إنك أنقذت بأعجوبة، ورفعت هذا المقص النكد إلى أظافرك، فسويتها جيدا، ودعكت الليفة بظاهر الكف حتى ضرب فيه الدم الأحمر.

ونثرت من زجاجة عطرك المكنونة بين طوايا الملابس على الصدر، وتحت الإبطين، وحول العنق، وعلى شعر الشارب الذي حففته في المرآة على بقايا النور الهارب من النافذة.

وها أنت تدخل البدن النظيف – بعد أن جففته جيدا في ملابس داخلية جديدة لها رائحة قطنية محببة للنفس.

فالنة وسروال ارتاح لملمسهما جسدك. وأدخلت رأسك في فتحة الجلباب الأبيض الجديد، ومددت ذراعيك إلى الكمين، ثم سحبت ذلك الجلباب إلى أسفل، كل هذا بسبب خشيتك على المكوة، فلا تريد للثوب أن يتكسر قبل أن تقع

عليه عين العروس وقبل أن يفرح به الناس حين يطالعونك كنجم لهذه الليلة.

وأدخلت قدميك في الحذاء الجديد، لا داعي للجورب، في الحذاء ما يكفي، كنت تضغط على القدمين بقوة، فالجلد مشدود، وجاف ضربتهما على الأرض ضربتين، فهبط الكعبان إلى أسفل، وتجولت بالحذاء في الغرفة، حول الطشت ، تدوس به على الطين بحذر وتحكه بالأرض حتى تضيع نعومة النعلين فلا يدفعانك إلى السقوط.

الآن أنت خارج غرفتك... لا تملك غير التردد في المدخل الطويل بانتظار السيارة التي ستحملك إلى عروسك وإلى بيتك الجديد.

تقف على الباب الخارجي. تطل برأسك في حذر.

يفاجئك سكون الشارع.

أين ذهب أهل الحي، لا نسوة هناك تحت السنطة ، ولا طفل يلعب أمام داره، ولا بهيمة عائدة مع صاحبها من الغيط.

هدوء تام. ومخيف.

يشبه الهدوء الأزلي في البيت الكبير، المختفي وراء كثافة أشجار التوت، حومت حولها العصافير عائدة إلى أعشاشها.

وتضاعفت العتمة في الخلف، وعلى الجوانب .

لم ير أحد خارجا من هذا البيت ، ولا داخلا إليه، لم ير عمره – بابا مفتوحا ، ولا نافذة مواربة.

عندما سأل زكي عن أصحاب البيت ، أشار إليه بأنهم هجروه إلى المدن البعيدة، بل منهم من سار خارج البلاد.

ولا تقيم فيه غير عجوز متهالكة، لها خادمة في مثل سنها تتردد على المحل لتبتاع كيلو اللحم، أسبوعيا.

أشار إليه حودة بأنه لا يعرفها، قال له زكي: سأشير إليك لما تدخل المحل يوما، فالمعلم يحتفي بها جدا، ويقوم عن مكتبه ليقطع لها اللحم بنفسه.

فهز حودة رأسه، وأشار بإصبعه نحو عقله علامة الفهم.

مشهد البيت يقبض النفس، ويسحب الروح.

هيئ له أن أشباحا سوف تطل عليه من وراء الأشجار.

جال ببصره في الجهة العكسية، فارتد إليه البصر محبطا، وموحشا هل سينتظر طويلا؟ قالوا له: ابق حتى تأتيك السيارة.

فلماذا تأخروا حتى هذه اللحظة، لقد أغلق الغرفة، ووقف يتأمل الشارع حد الملل، لا أحد هناك يعاونه على تزجية الوقت.

كان يظن أنه سيلحق بالنسوة المجتمعات تحت السنطة ، يلهو معهن، ويعابثهن ويجيب على أسئلتهن المتطفلة، ويمد يده إلى هذه، ويداعب تلك لتسري السخونة في بدنه ، فيحفزه ...و...

وماذا؟؟

يمتع عينيه بمشاهدة فكيهة ، وصدرها المكشوف.

إنها تدفع شياطين الأرض إلى دمه، فأين هي الآن؟

(هل سعت معهن لحضور العرس.

أم أن دلالها علي يمنعها؟

ليتها تذهب إلى هناك، لتكون آخر من تقع عليه عيناه، فيقبل على عروسه بحمية، لا تخمد.

وعاد بظهره إلى المدخل...

هل يعود لفتح باب الغرفة... ويقبع هناك بكل احترام حتى يأتوا إليه؟

لا أحد هنا حتى طالب الأزهر سعى معهم، قفله الكبير يتدلى على الباب: و(أم علي) – بالتأكيد – سحبت عمياواتها إلى هناك، فهذه فرصه لا تفوتها أبدا.

وشعر باليد التي تلمس رأسه: فانتصب الشعر رعبا، وتدافعت ضربات قلبه بألم.

ما هذا؟

يا ربي.. إنها فكيهة تطل من نافذة الغرفة من جهة المدخل.

كاد يصرخ من الدهشة والخوف معا.

وصرخ فعلا ، وهو يشير إليها، نحو قلبه، ويخرج من بين شفيته صوت ضربات القلب العنيفة، أشار إليها: كدت أموت من الخضة.

فأشارت إليه بوجه مشرق بالبدرة البيضاء والروج الأحمر الفاقع سلامة قلبك.

توقف ليتأمل بياض الوجه الذي تساقط حوله الشعر الأسود المحلول، والبسمة اللعوب المغوية التي تشيع البهجة إلى روحه، غمزت له بطرف عينها المكحولة ، وأشارت له بالسبابة تتقلب في قبضة اليد الأخرى : تشرب شاي؟

فصرخ من الفرحة: آب..آب..

رفع ذيل جلبابه واقتحم الباب المفتوح على المدخل ليهبط درجتين إلى الردهة المظلمة التي تخرج عن يمينها درجات السلم إلى مقعد (أم علي) ويقبع أسفلها المرحاض ببابه المرقع بخشب قديم.

فتحت له باب حجرتها.

وقف أمامها مبهوتا عاجزا عن رفع ساقيه إلى العتبة، فقد بهره ذاك الثوب الأحمر بالفروة الناعمة التي تهبط من خلف الرأس وتمتد فوق النهدين تاركة مساحة من النور تحت النحر، وفوق الهضبة اللاهثة وبين الفلقتين المعذبتين.

مدت يدها إليه، وأشارت لتقول له : عايز عزومة؟

ودخل...

ظل صامتا، يطالع أشياء الغرفة. الدولاب بمرآته الوحيدة، والسرير النظيف بأغطيته الخفيفة المطوية، والكنبة بمسنديها وفرشتها البيضاء الناصعة، وحصير البلاستيك المفروش ما بين الكنبة والسرير.

جلس ذات يوم على نفس هذا الحصير.. حين كان جديدا تماما، كان للغرفة رائحة الأشياء التي لم يهلكها القدم.

دعاه فكرى ليرص له حجرين، أشعلت لهما فكيهة الوابور ورصت فوقه صفا من القوالح ، دفنتها بين رماد المنقد، وراحت تتابع مع براد الشاي، حودة يرص، وفكري يقطع حتى شعشعت الحشيشة في رأسه، فكان يلقي النظرة إلى فكيهة التي صعدت إلى الكنبة بكامل بهائها، مشغولة بتطريز منديل الرأس الأبيض بوروده الزاهية، ذات الألوان الصارخة، يلقي النظرة، ويعود إلى نفسه حسيرا وحزينا.

يحاول أن يجعلها تلتفت إليه، ولكنها المعذبة، لا تلقي إليه بالا تظل مشغولة بعمل يديها، مسدولة الجفنين، ترقب الإبرة بين أصابع طويلة بيضاء.

يتنهد، وينفث النار من صدره، مع دخان المعسل، ويعود لرفع الجذوات إلى الحجر، ويمد الغابة إلى فكرى فاتحا فمه بأصوات تعني: مساء الورد.

وأكثر من مرة عندما يضطر لرص المعسل لزبائن مقهى متولي يسحب التعميرة بلسانه خلسة ليجمعها في قطعة معقولة ويغرى بها جاره عند اللقاء به مساء. يشير إليه بعد عودته من عمله: معي تعميرة تخبل.

فيدعوه إلى الجلسة التي أدمنها.

حاول – فيما بعد – أن يكرر طقسه المعتاد غير أن فكري أشار إليه بأنه لم يعد يدخن الحشيش، يكتفي بالسيجارة من حين لآخر، وسعل بشدة ، وتفل البلغم من فمه وأشار إليه ليفهمه أن الطبيب منعه من ذاك.

فانقطع حودة عن زيارته.

وحرم من هذه الجلسات الممتعة وهاهو يعود إليها دون فكرى ، فينشق أنفه روائح مختلطة من عطر المرأة، ومن عطن الغرفة، وعرق الملابس، وفرش السرير، والخشب الذي تراكم عليه غبار الشارع ورطوبة المكان.

سألها عن فكرى ، فأشارت إليه بأنه هناك مع المدعوين بانتظار العريس الذي هو أنت.

فضحك بحيرة وكأنما نسي الموضوع برمته، نسي أنه عريس الليلة، ونسي كل الاستعدادات التي تهيأ لها ، وشعر بأنه مقيم بهذه الغرفة منذ زمن بعيد.

وسألها بالإشارة : ولماذا لم تذهبي معه؟

فابتسمت، وأشارت إليه: تذهب في انتظار من؟ والعريس هنا معها، وحدها.

وجلست إلى جواره.

وصار الوجه في الوجه.

أشارت إليه بأنها ستكشف له سرا على ألا ينفعل يظل على هدوئه حتى لا يسمعها أحد من الجيران فأدهشه هذا..

أى سر !! هل ستقول له إنها تحبه؟

لماذا لم يحدث هذا من قبل، تنتظر كل هذا الوقت لتعلن له عن سرها، في يوم عرسه؟

وضع كفه على فمه، علامة الكتمان.

وقصت عليه لعبة المعلم كاملة، وهي تحرك أطراف أصابعها الممشوقة على ياقة الجلباب الأبيض النظيف.

لمعت عيناه في الظلمة، وكادت الدموع تسيل على خديه، لم يشعر بالعقدة التي ربطت لسانه قدر شعوره في هذه اللحظة، يريد أن ينتفض، أن يمزق شيئا ما أمامه أن يمد أصابعه الجافة إلى خناق شخص مجهول، لم يحدد ملامحه، لأنه يمتلك أكثر من وجه، ويعصر بهذه الأصابع رقبته حتى يتدلى الرأس على الصدر.

يريد أن يصرخ.. أن يصرخ.

أو ينفجر بدنه في أنحاء الغرفة.

غير أنها سيطرت عليه تماما.

جعلت عينها في عينيه، هي تحدق لتتمكن منه، وهو يحدق في الفراغ، عينان كبيرتان، هما فضاء هذه الغرفة ، ورفعت كفها لتكتم بها فمه، ثم حركت الكف إلى أعلى لتداعب شعيرات الشارب،ورفعت الأخرى إلى الأذنين.. واستسلم لها تماما.

أراد أن يسألها كيف عرفت بهذا الأمر؟

ولم يسيطر على الحشرجة المخنوقة في حلقه، فأعفته من السؤال الذي أدركته ، وأشارت إليه بأن المعلم استدعى فكرى ليدهن غرفة عرسك بالجير.

وألم بالموضوع كله.

وأشار إليها بيد هامدة: هل أحد آخر يعرف؟

وردت عليه بإشارة استعانت فيها بذراعيها لتديرها في الفراغ بأن البلد كلها تعرف.

وأشار إليها جامعا سبابتي اليدين حتى تلامسا: وزكي يعلم؟

قامت بطولها الفارع لتقف أمامه. أول العارفين.

فنطق الآه كما ينطقها السليم.

ولف ذراعيه حول خصرها، وأنام وجهه فوق قبة بطنها المشدود. مررت أصابعها في شعره، وراحت تهدهده وتضمه إليها ضما خفيفا رفيقا، وهو يدفس وجهه في بطنها.

ويقتحمه كالهارب، يريد الاختفاء، يريد الرحيل في دمها.

هاجر العالم من حوله.

وتحرك الدم في شرايينه ، وخفت حدة الفجيعة رويدا رويدا.

وسره أنه استطاع القيام على ساقين راسختين ليقف أمامها، الوجه في الوجه، العين في العين.

ثم أخيرا.. الفم في الفم...

وسره أنه استعاد قوته، فاستطاع أن يدفعها إلى الخلف، ليصعد بها إلى السرير، فتطاوعه بليونة وتطلب.

ولم يصدق نفسه حين وجد نفسه يقف عاريا تماما، وقد نزع كل ملابسه الجديدة عن بدنه الذي ألقى به إليها، فاستقبلته بترحاب، آخذة إياه، بحميمية، وتعاطف، نحو بحرها المتلاطم الحنون.

- ٥ -

هذه هي عودته الثانية.

في المرة الأولى، قال له المعلم حانقا : قب واغطس وهات لي اخوك من تحت طقاطيق الأرض .

كانت العربات قد عادت إليه فارغة، قالوا له لم نجد العريس في غرفته، وهي مغلقة بالضبة والمفتاح والدار خالية تماما، لا أحد هناك، لا فوق ولا تحت، حاولنا أن نسأل أحدا من الجيران لم نجد أحدا في الحي.

ودفع المعلم زكي من ظهره: رح لا ترجع إلا وهو معاك.

ولم يصدق الرجل أن أحدا من البلد قد باح له بالسر.

الكل في بهجة لمتابعة اللعبة حتى النهاية.

لا يمكن.. لا يمكن..

الكل حريص على اللهو به، فأين سيجدون متعه كهذه؟

إنها تحدث في العمر مرة.

قطع زكي الطريق مذهولا يسأل نفسه، أين ذهب حودة؟ تركته وهو في كامل فرحته، كان يستحم، ويستعد لليلته غير مصدق، ولم أشر إليه لا من قريب ولا من بعيد...

هل التقى بأحد في الطريق فكشف له السر؟

أي طريق؟ إنه لم يأت على قدميه، قلت له: لا تترك الغرفة حتى تأتي السيارة لتأخذك إلى عروسك.

هو إذن لم يغادر البيت..

أيكون أحد قد أشفق عليه، فتسلل إليه في غرفته ليعلن إليه ما دبره المعلم، وما أخفته البلد جميعا؟

عبر المدخل المظلم، لا يرى شيئا أمامه.

أشعل عود ثقاب، وانحرف نحو الغرفة. القفل مغلق في الباب، نده عليه وسط الظلام: حودة . يا حودة.

لم يستجب لندائه أحد.

أعاد النداء..

فأطل عليه رأس (أم علي) من النافذة العلوية: افتح الباب وشوفه جوه. وأجابها زكي مستنكرا: حيقفل على نفسه من بره.. إزاي يعني؟

وخرج إليه الطالب الأزهري بالفانلة والسروال، وقال له: رجعت من هناك بصيت عليه ما لقيتوش، شوفه على قهوة متولي.

- متولي قافل.

وعاد ليخبر المعلم بما رأى، وبما سمع.

كاد الجنون يخرجه عن طوره، فهدأه الشيخ سعدون قائلا: ابعت رجالتك يدوروا عليه في كل حتة.

فصرخ المعلم في الرجال المتحلقين حوله، فانتشروا في الأنحاء يبحثون عنه.

وعادوا في آخر الليل دون خبر .

فأعطى المعلم إشارته بانفضاض المولد، ومسح حمادة المساحيق عن وجهه، وخلع ثوب العرس، وعاد إلى بيته رافعا حقيبته تحت إبطه، وغادر الناس المكان.

بقي المعلم مع الشيخ سعدون، أمام نصبة متولي، يطلقون دخان الجوزة في غل، وبعد أن عمر الحشيش رأسه وأخذه السطل إلى عوالمه السحرية الخلابة، ابتسم المعلم، ثم قهقه بصوت عال، ثم استلقى إلى الخلف يضرب كفا بكف،

ويجاوبه في الضحك العالي الشيخ سعدون، وتناثرت عدوى الضحك على الجميع.

قال المعلم بدهشة وهو يمسح وجهه بمنديله الكبير: الواد فص ملح وداب.

ورد عليه الشيخ:ما أهبل إلا ابن آدم.

قال المعلم، وهو ينكت الدخان من صدره: قلنا اخرس ما بيتكلمش وأطرش ما بيسمعش وحنكفي على الخبر ماجور.

وعلق الشيخ على كلامه: ليكون الواد خاف من الليلة وقال يا فكيك.

عاد الغيظ المكظوم ينهش صدر المعلم ليقول: شاطر يعمل دكر على أسياده، حيروح فين، مصيرة يرجع زى الكلب.

وأجابه متولي وهو يمد الغابة إلى فمه: البلد غنمة قايمة وغنمة نايمة.

وتهلل وجه المعلم وهو يشير إلى عزيزة التي تمددت بطولها إلي جوار زوجها من تعب اليوم: طب يا خوي لم غنمتك وقم روح.

* * *

دخل زكي الحجرة مادا يديه أمامه يبحث عن لمبة الجاز، أشعل عود الثقاب فاتضحت أشياؤه القليلة فوق ترابيزة تراكم عليها التراب والزيت حتى اسودت جميعها.

أشعل فتيل اللمبة فازدادت الأشياء وضوحا، الطشت لم يزل في مكانه بماء الحموم، حوله دائرة من الطين، والنعل القديم لحودة على الأرض إلى جوار الفرشة وملابسه القذرة معلقة على مسمار، والفوطة لم تزل رطبة بعد أن جفف بها جسده، والتقط أنفه بقايا عطر ممزوجة بأنفاسهما التي لا تغادر الغرفة.

رد الباب وراءه، لم يحاول غلقه من الدخل، ربما عاد وأراد الدخول دون أن يحدث صوتا يوقظني، سأشعر به، مهما تخفى، وأتشمم أنفاسه، ويتردد في سمعي لهاثه (أين أنت الآن يا حودة؟).

(عد.. وليكن ما يكون)

مدد جسده المرهق على الفرشة، وأسند رأسه على كفه، وأخفض فتيل اللمبة فتأكدت الظلال، وصارت طويلة وشبحية ، حدق طويلا جهة النافذة المفتوحة على الشارع.

ولم يشعر إلا بصوت أمين الأعمى يتردد في صمت الحي (سبحان ما تسمى قبل أن يتسمى.. سبحان من علم آدم الأسماء)

نهض من فرشته، يمط جسده، وينطر يديه إلى الأمام وإلى الخلف، تثاءب وهو ينادي عليه : حودة..اصحى يا حودة . لم يجد من يجيب النداء، فتوالت على ذهنه أحداث البارحة فشعر بغصة في حلقه، نفخ الشعلة الصغيرة الواهنة، وخرج إلى الشارع وحيدا، يسير صامتا في الشارع الصامت، نظر خلفه عله يراه قادما نحوه، وتلفت يمينا وشمالا، لم تقع عيناه على أحد.

ألقي تحية الصباح على (أبو سنة) الذي يرفع سحاحيره خارج البيت، وتابع الأم وهي تلاحق ابنتها بالمكنسة، فتبسم، وحانت منه نظرة عابرة إلى يساره ليلكز حودة ، ولم يشعر إلا بالفراغ، ورأى النسوة الرافعات لمتارد اللبن، يسعين إلى المعمل ويتركن الأثر على تراب الأرض بعد أن يدسن الطبقة الخفيفة من الندى .

كل شيء يسير كالمعتاد...

هؤلاء الناس كأنهم لم يشاركوا في لعبة الأمس.

الشارع الكبير يضج بالسيارت، ومتولي يقف أمام النار يغرس فيها السيخ الحديد، ويخرجه متوهجا ليطهر به قلب الجوزة، وامرأته على النصبة تراعي الكنكات على الرمالة وتغمس الحجارة بالمعسل.

- ما ظهرش برضه؟

- أبدا.

- راح فين يا خوى.

- ربنا أعليم.

وقف على أول الكوبري الذي تقطعه بوابة المحطة، يرقب قدوم العربة الكارو...

وأخيرا رآها مقبلة، يدفعها الرجال من الخلف، ليتمكن الحمار من جرها في المطلع الصعب، حين استوت على الطريق توزعوا حول أرضيتها الخشبية، وقد تدلت سيقانهم على الجانبين، تاركين مساحة للطشوت ، وعدة الجزارة.

وبآلية اعتاد عليها قفز إلى جانب العربة. في نفس المكان، وأطلق الحوذي العنان إلى الحمار، فاندفع سعيدا بالهبوط إلى شارع السوق متخذا طريقه إلى السلخانة.